قراءات مختصرات

د. ليلى حمدان

[إلى كل من أحب الله ورسوله ﷺ

إلى أبناء الأمة الإسلامية الواحدة ..]

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فلأهمية المطالعة وتلخيص الفوائد، وتحصيل فهمٍ لائقٍ بأمهات الكتب في المكتبة الإسلامية، ولاختصار الوقت والجهد على المنشغل والمقبل، ارتأيت أن أجمع قراءات مختصرات لجملة من المؤلفات، تناولت دراستها وسبر أغوار محتواها.

ويجدر التنبيه على أن اختيار الكتب كان عشوائيًا لم يخضع لقصدٍ بعينه، ولا لترتيبٍ بحد ذاته، وإنما هي خلاصاتٌ لتأليفاتٍ تعتبر من أبرزِ ما شغل الساحة الأدبية والعلمية والتاريخية في عصرنا الحديث.

وقد سبق وأن نشرت هذه القراءات بشكل منفرد وعلى فترات زمنية متباعدة على موقع تبيان، على الشبكة العنكبوتية، وتلبية لطلب بعض الأفاضل، جمعتها في مؤلف واحد، لعلها تفيد وتنفع.

هذا وأرجو أن أكون أوفيت هذه المؤلفات حقها من الوصف والإنصاف، وأبرزت بذلك ثمرات بذل كتابها وأحييت ذكرهم بكل إخلاص، لعل وعسى يكون في ذلك جزيل شكر وامتنان لما قدموه من تفاني في مسالك العلم وقضايا الأمة والاجتهاد.

فما كان من صواب فذاك فضل من الله وحده وما كان من تقصير أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والحمد لله على نعمة القلم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

ليلى حمدان

فهرس الكتاب

كتاب رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر.....5
كتاب سلطة الثقافة الغالبة لإبراهيم السكران.....13
كتاب مآلات الخطاب المدني لإبراهيم السكران.....25
كتاب السرطان الأحمر لعبد الله عزام..... 35
كتاب معركة الإسلام المقبلة.. مسلمون وسط آسيا لأبي مصعب السوري 48
كتابات حول سيناء بين أطماع الاستعماريين والصهيونيين للبنا وقطب والشريف... 59
كتاب الماجريات لإبراهيم السكران.....66
كتاب إدارة التوحش وأخطر مرحلة ستمر بها الأمة لأبي بكر ناجي.....73
كتاب معركتنا مع اليهود لسيد قطب 86
كتابات حول أمريكا بعيون قطبية لسيد قطب 95
كتاب المسلمون والحضارة الغربية لسفر الحوالي 106
كتاب الفريضة الغائبة لمحمد فرج 135
كتاب لماذا أعدموني لسيد قطب 148
الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية 160
موسوعة الذخائر العظام فيما أثر عن عبد الله عزام.....170
خاتمة 178

♦♦♦♦♦♦♦

كتاب رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

لمحمود محمد شاكر

نسافر اليوم عبر صفحات خطها العلامة أبو فهر محمود مُحَمَّد شاكر، كاتب ليس ككل الكتاب، فهو صاحب أمهات الكتب العربية، وفارس اللغة العربية بلا منازع، لطالما كان بيتُه عنوان التراث العربي والثقافة الإسلامية لمن ينشدهما.

تلك الصفحات التي جعلت من كتابه ''المتنبي '' في طليعة مؤلفاته، التي أحدثت دويًّا عظيمًا في ميدان الثقافة والأدب فور صدوره، وكانت أيضًا دليلًا على نباغة شيخ العربية وحامل لوائها؛ فشغل بذلك اهتمام العديد من الكتاب، وأصدرت لأجله عدة مؤلفات تتناول دراسة عبقرية عالمنا الفذّ.

وكتابه المِمتِع''رسالة في الطريق إلى ثقافتنا''، هو في الأصل مقدمة لكتابه''المتنبي'' الذي طبع عام 1978م. ارتدى معه أبو فهر الجوشن وامتشق السيف؛ ليدافع عن لغة قومه وتراثهم. وقد جاءت هذه المقدمة بعد أن ظهر كتاب ''المتنبي'' وأحدث ما أحدثه من دوي عاصف، وجاءت بعد تطاول الزمن ومرور الوقت، وهدوء العاصفة حتى تبين منهج الكتاب وطريقته.

أسلوبه في التأليف

واتبع العلامة شاكر في تأليفه على طريقة السرد التي ابتدأها بسرد تجربته بنفسه، وكيف اهتدى إلى المنهج الذي اتبعه في سائر مؤلفاته. وكيف كانت رحلته إلى منهج التذوق؛ الذي خالف المناهج السائدة.

ثم استمر يتحدث إلى قارئه حديثًا متسلسلًا، هادفًا، لا على شكل فصول، بل على شكل فقرات؛ والتي بلغ عددها 24 فقرة، عمد إلى ترقيمها ترقيمًا مُنظمًا، ثم ختم الرسالة بتذييل، ذكر فيه شهادته على فساد أدب عصره وثقافته، وشهادة طه حسين التي تصبّ في نفس الاتجاه.

أهمية الطرح

وما يجعل طرح أبو فهر على مستوى كبير من الأهمية هو ذلك الكشف العميق عن جذور الصراع؛ التي أدت هزيمتنا فيه، وضعفنا أمام الخصم العنيد إلى فساد حياتنا الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية.

وما نشأ فيها من المناهج التي كانت تسود الحياة الأدبية والثقافية، ولا تزال إلى يومنا هذا، وهو ما رفضه العلامة شاكر جملة وتفصيلا. فالثقافة العربية كلّ لا يتجزأ، وبناء لا يتبعّض، وأساسها ورسوخها في ما عند أوائلها.

الغزو الأوربي

يعرض العلامة شاكر في هذا الكتاب مناقشته لوضع ثقافتنا العربية والإسلامية بعد الغزو الأوربي؛ ذلك الغزو الذي ارتبطت بدايته بغزوة نابليون، وكان هدفه تجذر

التغريب بشتى الوسائل والأساليب. ما يفسر اعتماد نابليون على العلماء والمستشرقين من كل الاختصاصات.

هذا كان حينما أدرك الغرب أن سرّ قوة المسلمين هي في تمسكهم بتعاليم الإسلام العظيم، وأن النجاح في إبعادهم عن تعاليم هذا الدين ستضمن الهيمنة الغربية والتفوق. وخلال سفره نلاحظ أن العلامة شاكر قد ابتدأ بالأقدم فالأقدم، ما يسر عرضه لتفاصيل بداية هذا الصراع وكشف النقاب عن حقيقة المستشرقين ومنهجهم وأهدافهم وأغراضهم.

نهضة مقلقة

كما سلط كاتبنا الضوء على أولئك الجواسيس؛ الذين مهدوا الطريق لأهدافهم الاستعمارية قبل مجيء الحملة الفرنسية، وهذا ما تطلب منهم اليقظة والرصد لكل حركة بما فيها تلك التي ظهرت في القرن الثامن عشر.

حين تألق نجم البغدادي صاحب خزانة الأدب، والجبرتي الكبير في الكيمياء والطبيعة، والسيد مرتضى الزبيدي فارس اللغة العربية صاحب الموسوعة الضخمة "تاج العروس"، والإمام الشوكاني في اليمن، والإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب عَلَم عصره، الذي أحدثت جهوده في تنقية العقيدة مما علق بها من أوهام وبدع ما أحدثته من أثر كبير...

فكان الخمسة معالم نهضة كبرى، يعرفنا عليها شاكر ويعرفنا أيضًا كيف استهدفت وأبيدت! ثم كل هذا كان تحت أعين الغرب ولا شك أنه أثار قلقهم؛ لأنه يمثل بوادر نهضة تهدد مصالحهم، وهنا برز أكثر دور المستشرقين الذين كانوا يحرضون على غزو مصر.

ومن يطالع فكر العلامة شاكر الذي برز خلال تسطيره لصفحات هذا الكتاب يجده قد رسم خريطة فكرية حسب القرون الهجرية لكل علماء الإسلام، واعتنى بكل واحد منهم عناية فائقة، ذلك أنه كان يرى أن الدين هو رأس كل ثقافة لأنه فطرة الإنسان والأصل الأخلاقي الذي لا يمكن أن تقوم الحضارة إلا به وإلا صارت الدنيا فوضى عارمة.

الصراع بين المسيحية والإسلام

وقد خصص شاكر قسما من كتابه للحديث عن الحروب والصراعات التي كانت تدور رحاها في داخل العالم الإسلامي، وتحدث عن تاريخ تلك التراكمات من الأحقاد والضغائن لدى المسيحية الشمالية في أوروبا ضد المشرق الإسلامي، وهو الذي لبس أثواب الاستشراق والتنصير والاستعمار.

وهنا غاص بنا الكاتب في أعماق الصراع بين المسيحية والإسلام في صوره المختلفة؛ لنتعرف على قصة إخفاق وفشل الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها، ومرورًا بفتح القسطنطينية، وكيف كان وقع هذا الخبر على أوربا، ثم معركة الاستشراق وكيف كانت، وكيف جنت ثمرتها بإخراج طائفة من المستعمرين والمبشرين.

وافتتح تفصيله بالحديث عن العصور الوسطى، تليها عصور النهضة، ثم الحروب الصليبية، وكيف تسببت هذه الحروب في تصدع أركان الدولة الإسلامية آنذاك؛ والتي بدأت بقيادة الرهبان وملوك الإقطاع الذين يطمعون في عسل الشرق ولبنه .ثم عرج على تاريخ سقوط القسطنطينية على يد مُحَمَّد الفاتح، ما يعني سقوط العاصمة المسيحية، ليكون هذا التاريخ منبع الحقد الشمالي المسيحي.

الاستشراق والمستشرقون

وعرض شاكر حقيقة الاستشراق منذ بدأ يظهر رجال من أمثال ”روجر بيكون “ الإنجليزي، كان هدفهم إتقان العربية؛ ليمنعوا الأوروبيين من الانبهار بحضارة الإسلام التي كانت في أوجها وقتئذ. كذلك ضرب مثالًا على المستشرقين:”توما الإكويني“ الإيطالي الكاثوليكي؛ الذي حصل من ديار الإسلام على قسط كبير من العلم والمعرفة.

وخلص إلى أن ما يفعله المستشرقون لا يمتُّ للمنهج بصلة؛ بسبب الفروق الكبيرة في اللغة والثقافة والدين، وهي أساسًا أدوات ما قبل المنهج، فضلًا عن أن المستشرقين أهل أهواء، لا باحثين عن الحق. وما كتبوه من كتابات إنما كانت لأجل مصالح أقوامهم، هدفها كان ألا يدخلوا في دين الإسلام أفواجًا كما دخلت الكثير من الأمم الأخرى.

وفي نفس الوقت إطلاع ساساتهم على ما عند المسلمين من العلوم والكنوز والذخائر؛ من أجل السطو عليها في معركة الاستعمار، كما كانوا خير دليل لعلمائهم؛ فأمدوهم بأفضل السبل لمواجهة المسلمين في معركة التبشير التي لا زالت ممتدة بين أرجاء العالم الإسلامي إلى يومنا هذا.

الحملة الفرنسية وخطورة المصادر التاريخية

اعتنى الكاتب أيضًا بتفصيل حملة نابليون وأهدافها الحقيقة فبرزت عبقرية شاكر في قدرته على تقديم دراسة عميقة متأنية للنصوص، تترفع عن التفسيرات الفاسدة، مُبرِزة بوضوح دور الاستشراق الخبيث وتداعياته. وقد عرفت مصر خلال الحملة

الفرنسية الفظائع ومهزلة ترويض المشايخ الكبار، وقصة سرقة المستشرقين كنوز تراثنا مع خروجهم من مصر.

ولعل من أهم النقاط التي عرج عليها العلامة شاكر هي تأكيده على خطورة الأخذ من المصادر التاريخية دون تفرس وتبصر، ولهذا نجده يطلق على عبد الرحمن الرافعي اسم المؤرخ المدجن، ويعرض العديد من أخطائه وهو نفسه الرافعي الذي كان يشيد بعبقرية مُحَمَّد علي الذي كان وراء تدبير البعثات العلمية.

وهو الأمر الذي بيّت له أساطين الاستشراق لم يكن من صنيع الجاهل مُحَمَّد علي؛ الذي برز دوره صارخًا في إجهاض دور المشايخ بعد غدره بهم، ومحاربته لنهضة ابن عبد الوهاب، ثم طامة الطوامّ بإجهاض دور الأزهر في الحياة.

تأثير المبتعثين والاحتلال الانجليزي

رفاعة الطهطاوي أيضًا كان له حضور في كتاب العلامة شاكر، وخاصة ما فعله معه المستشرقون وكيف أنه حاز ومن معه على أعلى المناصب بعد عودتهم من بعثاتهم، وهي المناصب التي لم يحصل عليها العلماء إلا بعد جهد جهيد، ولم يفته الحديث عن مدرسة الألسن التي أنشأها الطهطاوي ودورها الخطير الذي كانت تهدف له.

كما ركز العلامة شاكر أيضا على الاحتلال الانجليزي لمصر؛ الذي جعل التعليم في قبضة المبشر الخبيث دنلوب، وأصبح من يريد العلم الديني يتجه للأزهر ومن يريد العلم الدنيوي يتجه إلى المدارس، وهناك استُهدف الطلبة لسلخهم من ماضيهم وبعث الانتماء إلى الفرعونية البائدة.

قصة التفريغ الثقافي

ثم بتفصيل الحديث عن آثار ورواسب هذا التفريغ؛ الذي نعاني منه حتى يومنا هذا، خصص كاتبنا بسطًا زاخرًا بعنوان"قصة التفريغ الثقافي" نصطدم فيها بواقع الحقيقة المروّع.

يحيكها لنا متفكرًا – العلامة شاكر– ببراعة قَلّ لها نظير، وهي ما يعرفه الناس بتسميات مختلفة منها: ثقافة العصر والتنوير والتجديد، مواضيع تناولها بالتفصيل في كتابه الشهير "أباطيل وأسمار".

طه حسين

طه حسين أيضًا كان له حضور في كتاب العلامة شاكر؛ فبيّن كيف أثر فيه المستشرقون خاصة في كتابه "في الشعر الجاهلي"، وبتعمق أكثر وتفصيل أتقن، تمكن كاتبنا بنجاح أن يكشف لنا كيف كان يحاك من تدميرٍ لثقافتنا وتراثنا، واستشهد بشهادة طه حسين نفسه في هذا الباب.

مرجع أساس وخلاصة جامعة

وفي النهاية فإننا نجد أن العلامة شاكر قد نجح في إيفاء دراسته كل جوانب العرض والبيان، وتناول أصول الغفلة وجذورها؛ التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه بكل براعة وسبق.

وأبلغ فيها النُّصح والإيضاح لمنهجه الفريد –منهج التذوق–. ويكفي أن نعلم أن بصمة شاكر في موضوع"الاستشراق" جعلت من هذه الرسالة أحد المراجع الأولى التي لا يُستغنى عنها لكل مؤلف تناول هذه القضية.

ونخرج نحن من هذا السفر بخلاصة جامعة مفادها: أن ثقافة كل أمة هي جسدها الذي يقوم به كيانها، وتُعرف به من بين أقرانها، ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان.

هذا مفهوم الثقافة الشاملة عند شيخ العربية وفارس التحقيق أبو فهر محمود مُحَمَّد شاكر رحمه الله، فبارك الله في سعيه وجزاه عن أمة الإسلام خير الجزاء، وجعلنا من خير من يحفظ ثقافتنا الإسلامية الماجدة.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كتاب سلطة الثقافة الغالبة

لإبراهيم السكران

أطل علينا فكر الشيخ إبراهيم السكران ببراعته المعتادة خلال كتابه الماتع ”سلطة الثقافة الغالبة“ ليسلط الضوء على ظاهرة في غاية الأهمية لا ريب أن الأمة تعاني من تداعياتها وبحاجة لتشخيص دقيق لأعراضها وعلاج ناجع لأخطارها.

الكتاب جاء في مقدمة ومدخل تنظيري وثلاثة فصول وخاتمة. وهو حصيلة نقاشات لأسئلة طرحت محلياً، وقد كتبها الكاتب في الأعوام (1431هـ-1433هـ).

وكعادة الشيخ في تناول المواضيع الحساسة في دراساته قدم بحثه بتوطئة جميلة لظاهرة ”سلطة الثقافة الغالبة“ التي رصدها السابقون الأولون من علماء وأئمة الإسلام، والتي لخصها ابن خلدون في نصه التنظيري بتميّز لا ندّ له، حين قال في الفصل الثالث والعشرون من مقدمته:

"المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب: في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك ، واتصل لها اعتقادا.

فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ..حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغالب عليها: فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير".

واسترسل الكاتب لاحقا في تحليل ظاهرة الهزيمة النفسية لثقافة الغرب الغالب، والتي ظهرت ملامحها منذ قرابة المئتي سنة في زمن رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني، والتي كررت نفس السلوك التاريخي السابق وهو تأويل المعطيات الشرعية لتوافق الثقافة الغالبة وخصوصا عبر آلية حقن اللفظ التراثي بالمضمون الغربي تمهيدا لتبيئته.

وبعد سرد للعديد من الشواهد على ظاهرة الخنوع لهيمنة الثقافة الغالبة.

أجاب الكاتب على سؤال مهم: لماذا لم تنجح ظاهرة تطويع الشريعة للثقافة الغربية الغالبة في تحقيق النهضة وحماية الشباب المسلم من الإلحاد؟ ولخص الشيخ جوابه على لسان كوكبة من المفكرين الإسلاميين الذين قدموا الإجابات البديعة التي كان من أبرزها: أن الشعور بمركب النقص لا يبعث نهضة وهو ما كرره باستمرار مالك بن نبي.

واللاعبون الكبار على رقعة السياسة اليوم يدركون أنه لا يمكن ضمان مصالحهم الاستراتيجية ونفوذهم الدولي إلا بتدجين كل الخطابات الدينية الحيوية الكبرى، وحقنها بفيروس الخنوع للغالب، وإماتة لياقة الممانعة فيها، لتنسجم في النهاية مع متطلبات الهيمنة الغربية.

وهذا ما يفسر إنفاق الإمبرياليات الغربية المعاصرة بسخاء لا محدود على مراكز البحوث والدراسات وتقارير الرصد الدقيق والمستمر لكل بؤر التوتر بشكل عام والحراك الديني الإسلامي بشكل خاص.

وسلط الكاتب الضوء على كمّ الأسئلة المهمازة التي الأساس الصريح أو المضمر فيها، هو التعارض بين الأحكام الشرعية والثقافة الغربية الغالبة. وهو أمر بلغ ذروته في السنوات السبع العجاف عقب سقوط بغداد في 2003م ، وحتى ثورة تونس 2010م.

تناول الشيخ بعد ذلك المداخل النظرية وافتتحها بالتناظر بين الاستبداد السياسي والاستبداد الثقافي. والتي بعد صبر لأغوارها خلص في النهاية إلى أن الكثير ممن يكون ضحية الاستبداد غير واعٍ بحاله يتوهم بأنه مستقل وهو يرسف في الأصفاد منذ أزمان.

وسائل العلاج والخروج

ويرى الكاتب أن أهم وسائل العلاج على الإطلاق: ضخ مفاهيم العزة والكرامة والإباء والشموخ وقيمة المسلم ونحو هذه المنظومة المفاهيمية بحيث يأبى من نشأ في مثل هذه الثقافة المعتزة الشامخة أن يخنع وينصاع لمستبد سياسي لا يراك أهلا لأن تشارك في القرار، ويطلب منك أن تمد معاريضك فقط، أو مستبد ثقافي لا يراك أهلا لأن يكون لك منظومتك التشريعية الخاصة فيهينك لكي تكون تبعا له، تؤمن بالحرية الليبرالية والديمقراطية وتؤول نصوص الله ورسوله ﷺ لكي تتوافق مع ثقافته الغربية الغالبة.

ومن المداخل النظرية أدرج الكاتب فصولا نافعة وهي الخضوع المضمر للثقافة الغالبة، ومصائر الخضوع للثقافة الغربية، ثم انطلق بعد ذلك يفصل في فصل استقبال النص تحت عنوان عزل النص عن التجربة البشرية، أين أبرز الكاتب مشكلة المتوالية الفكرية حين يتبنى بعض الناس مقدمات خاطئة يسارع في تبنيها قبل الاستكشاف المسبق للوازمها فيحرص على أن يحافظ على إطراده فيها فيلتزم

لوازم تنتهك في مصائرها النهائية حدود الوحي. وهو مفهوم تجريد الإسلام أي جعل النص فكرة مجردة ، ومؤدى كلام هؤلاء أن الإسلام لا يرتبط بأي تجربة بشرية. ولهذا يرددون (يجب تخليص النص المقدس من التاريخ غير المقدس) وقولهم النص مطلق والفهم البشري محدود والمحدود لا يحكم المطلق).

وصار مؤدى كلامهم إلى أن هؤلاء الذين درسوا اللسانيات والهرمنيوطيقيا وفلسفة اللغة والنقد الأدبي – وهذه أصول علوم الدلالة في الفكر الغربي –أفقه في معنى القرآن والحديث من أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود فكانت زندقة عظيمة.

والمراد أن تعظيم السلف والاهتداء بفهمهم للنص دلّت عليه النصوص الشرعية وغالب أسرى الثقافة الغالبة لا يتفطنون لآثار إسقاط هذا الأصل الجوهري، ثم تناول الكاتب مسألة في غاية الأهمية ألا وهي توظيف مفهوم الوسطية، التي تعاني استنزافا مكثفا ومفاجئا في خطابنا الثقافي المحلي.

وتسابقت المطالبات بالوسطية في وقت فات المطالبين بها أن الوسطية في القرآن نوعين، مطلوبة ومرفوضة!

وبعد تأمل وصل الكاتب إلى تقنية ذهنية مشتركة تسببت في خلق الفارق بين كل هذه الاتجاهات الفكرية (لعلمانيون والليبراليون والتنويريون واليساريون) وبين أهل السنة تتيح الفهم بشكل أفضل الفارق الجوهري في عملية تشكيل المعرفة بين مدارس الثقافة الغالبة وأهل السنة.

فالطوائف الأربعة يجمعها قاسم مشترك فكري واحد، أو آلية فكرية مشتركة هي التي تسببت في مفارقتها لأهل السنة في نمط فهم الإسلام ويمكن أن نسمي هذا الميكانيزم العقلي بتجزئة الوحي.

وحصيلة هذا التحليل أن المدارس الفكرية المنزلقة في فخ الثقافة الغالبة تجدها كلها تستعمل تقنية التبعيض في تعاملها مع نصوص الوحي، وبذلك تحقق لنفسها شيئا من الطمأنينة الداخلية بأنها ما زالت تتصل بسبب إلى الإسلام وأنها تنطلق من الإسلام وأن مشكلتها ليست من الإسلام، ونحو هذه التضميدات العاطفية لمشاعر الانشقاق المنهجي.

ولأن الثقافة الغالبة ستصطدم حتما ببعض المعطيات الشرعية فقد راجت بين المدارس الفكرية المعاصرة آليات التقليل والتخلص من المعطيات الشرعية كحصر الشريعة في قطعي الثبوت والدلالة، وسبب رواج هذه الفكرة هو ما فيها من الاصطلاحات الأصولية، التي مرر فيها المحرفون حمولتهم الفكرية الفاسدة.

وبسط الكاتب تحت عنوان "مؤدى غثاثة الرخص" قضية أن التراث الإسلامي يعج باجتهادات شرعية كثيرة فإذا استطعنا جمع وأرشفة رخصة كل عالم أصبح لدينا ملفا جاهزا لتخريج وشرعنة المعطيات التي تفرضها علينا الثقافة الغالبة. وبيّن الفرق بين رخص الله ورخص المجتهدين، أي الفرق بين العمل العلمي والعمل التلفيقي.

قال سليمان التيمي: (لو أخذت برخصة كل عالم –أو زلة كل عالم– اجتمع فيك الشر كله).

والخلاصة أن استناد التيارات الفكرية لمعاصرة إلى آلية تتبع الرخص يهدف شرعنة بعض عناصر الثقافة الغالبة المخالفة للنصوص الشرعية هو اتكاء على أسس هشة غير علمية.

وتحت عنوان "حاكمية الذوق الغربي" سلط الكاتب الضوء على محاولة سجناء الثقافة الغالبة توظيف مفهوم التجديد أو ما يسمونه تجديد الفقه الإسلامي

ليتناسب مع العصر. والذي لا يعدو كونه تحوير وتعديل الأحكام الشرعية لتتفق مع ثقافة الغالب أين يحضر الذوق الغربي في باطن هذه الأحكام كحاكم يرجع إليه ويصدر عنه.

وينتهي الكاتب إلى أن فكرة تجديد الشريعة لتوافق الذوق المعاصر، فكرة متناقضة لا يمكن العمل بها أصلا وأنها تفضي للتسلسل فلا تتوقف وكل من عمل بها وقع في التحكمية والعشوائية في تطبيقها فطبقوها تارة على أحكام المرأة والجهاد وتوقفوا عن تطبيقها في مواضيع أخرى لأنهم ارتطموا بشناعة نتائجها ، وشتان بين شرف الوحي وانحطاط الذوق الغربي. ولهذا فإن الواجب هو أن نطور الذوق المعاصر ليرتقي إلى الوحي.

وعرض الكاتب نماذج من ضغط الثقافة الغالبة على الشعائر واستعان بصلاة الكسوف كنموذج، والهدف من معالجة هذا النموذج كشف الجهل الفادح لدى كثير من المهولين للثقافة الغالبة وتسرعهم في تبني مواقف خاطئة شرعا وتاريخا.

وفي الفصل الثاني للكتاب تناول الشيخ العلوم المعيارية واستهلها بعنوان "تعديل الجهاز الدلالي" أين بيّن تفريق علماء الشريعة بشكل واضح بين العقائد والشعائر فيجعلونها توقيفية وبين الشؤون المدنية فيجعلونها اجتهادية فلا يجوز لمسلم أن يعتقد في الله (العقائد) أو يتعبد الله (الشعائر) إلا بشيء منصوص عليه ولا يجوز للعقل أن يخترع عقيدة في الله، أو أن يبتكر عبادة جديدة.

أما العلوم والشؤون المدنية فهي اجتهادية يجوز للعقل أن يبتكر فيها ويبدع بشرط واحد فقط: أن لا تعارض الوحي.

وتناول الكاتب بعدها قضية التركيز على الرواة المكثرين. واستنكار بعضهم انفراد أبي هريرة ﷺ بالأحاديث الكثيرة وناقش معها استشكالات أخرى عديدة.

ومن الآليات التي لجأ إليها المستكينون لهذه الثقافة المهيمنة للتخلص من النصوص، لتلافي الحرج النفسي بينهم وبين أنفسهم ، والحرج الاجتماعي بينهم وبين الآخرين في مجتمعهم، توسيع وبعج مفهوم ''نقد المتون'' أي متون السنة النبوية.

وهدفهم من هذا الرد للأحاديث النبوية المخالفة للثقافة الغربية الغالبة قولهم : إنهم إنما أرادوا بذلك الدفاع عن النبي وليس القدح فيه وأن لا يُنسب له ما يسيء له، وهي حجة مستهلكة يستترون بها في تحريف الشريعة لتوافق قيم الغالب.

وهكذا تلغى أحكام الجهاد والمرأة والكافر باسم الدفاع عن الاسلام من أن تتشوه صورته في الوعي الغربي.

وفي مناقشته سلط الكاتب النور على اختلاف جوهري بين مفهوم التجديد في العلوم الشرعية ومفهوم التجديد في العلوم المدنية، من خلال عرض مثالين نموذجيين هما الشافعي وآينشتاين، فالأول رمز للعلوم الشرعية والثاني رمز للعلوم المدنية. وكلاهما شعلة الإبداع في حقولهما. وبين الفارق الجوهري بين النموذجين أين يعتبر الاستحداث في العلوم المدنية مؤشر إبداع مطلوب بينما يمثل في العلوم الشرعية مؤشر تراجع وانحطاط.

ولا شك أن التأثر الخاطئ بقراءة تاريخ العلوم المدنية كالفلسفة والنظريات العلمية ومحاولة إسقاط فكرة الثورات والنظريات والتحولات الجذرية والانقلابات العلمية المفاهيمية على العلوم الشرعية ، خطأ قاتل.

استراتيجيات فعّالة

وتحت عنوان "استراتيجية اللابديل" يبيّن الكاتب أن الحياة مبنية على تقابل إرادتين، إرادة بشرية وإرادة إلهية، والنخب المثقفة المرتهنة للثقافة الغالبة تتألم من الارتطام المستمر بين رغبتها البشرية وإرادة الله الشرعية. فتصعد إلى تبديل مراد الله. فتصل إلى منطقة الخطر النهائي، إنه التعدي على الذات الإلهية.

وأوضح الكاتب أن صاحب إستراتيجية اللابديل لا يقدم لك –مثلا– معنى للنص تناقشه، وتوازن بينه وبين تفسيرات الخطاب الشرعي السني، وإنما يقول لك النص لا نهائي التفسيرات، ويتوقف دون تعين، وهكذا حاله في كل المعارك والصراعات التي تدور بين هؤلاء المنهزمين وبين أهل السنة.

وفي الفصل الثالث تناول الكاتب نظام العلاقات، وابتدأ بتمييزات العلاقة بالمخالف، فتحدث أول ما تحدث عن المبادئ العامة لأهل السنة والجماعة في الموقف من المخالف، وسلط الضوء على نواة الخلل في الشعارات الثلاث المطروحة (الليبرالية ، الحرية ، والموقف من المخالف) الذي يتمثل في تأويل الأحكام الشرعية المعارضة للحرية الليبرالية للمخالف، لكنهم يتفاوتون في تأويل الشعار ويتفاوتون في مدى التأويل وحدوده.

وميّز الكاتب بين المسائل الظاهرة والاجتهادية، وبين الأصل والهفوة وبين الرأي المطوي والرأي المشهور، وبين مقام الدعوة ومقام الإنكار، وفي أغراض العبارات بحسب الأشخاص، وناقش مجموعة من الأقوال التي يظهر فيها التمييزات السنية في العلاقات بالمخالف، ومناقشة بعض التعابير المشحونة بمضمون ليبيرالي، والتي راجت بسبب ضغط ثقافة الحرية الليبرالية الغالبة.

وتعرض الكاتب لتفكيك مفهوم الطائفية، أين جعله هؤلاء أصلا يحاكمون الناس إليه. وخلص إلى أن لفظ الطائفية محدث وليس أصلا شرعيا يحاكم الناس إليه ونقد الطوائف التي ضلت عن شيء من الشريعة مطلب شعري وفريضة قرآنية وهم جعلوه عيبا ومذمة!

وتحت عنوان لبرلة الولاء والبراء تناول الشيخ مسألة ضرورة إعادة قراءة الولاء والبراء، وقضايا بغض الكافر والزوجة الكتابية وغيره وكلها قراءات تستهدف بشكل مكشوف تخفيض مضمون الولاء والبراء ليقترب من نظرية الحرية الليبرالية، وأكد أن تصرفات متفقهة الثقافة الغالبة في لبرلة الولاء والبراء هي من أوضح النماذج والتطبيقات في تقديم المتشابه على المحكم وعاهة تعقيد الاستثناءات أي تحويل الاستثناء إلى أصل والأصل إلى استثناء فالله أمر ببغض الكفار وأجاز نكاح الكتابية، فأخذوا الاستثناء وهدموا به الأصل، ولا زالوا في تشذيب الإسلام وقصقصته لأغراض التبسم في مؤتمرات إنشائية يخدع بها الحاضرون أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم.

تناولت المناقشة أيضا مفارقات لبرلة الخلاف، أين سلط الضوء على تناقضات الخاضعين لثقافة الحرية الليبرالية الغالبة الذين يتحدثون كثيرا عن حرية المخالف حديثا مخالفا للشريعة وفي ذات الوقت ينتهكون حقوق المخالف الشرعية ذاتها. والتي صورها أحد أدباء القرن الثالث قائلا: ”يصول أحدهم على من شتمه ويسالم من شتم ربه“.

وأبرز الكاتب ظاهرة كسر الخصوصية العيدية التي انتشرت بكثافة مع ثورة الاتصالات الحديثة وتزايد الامتزاج بغير المسلمين فانسكبت أنماط حياة الأمم المهيمنة على مجتمعاتنا المستضعفة أنماط حياتها في الزيّ والطعام والحفلات، ومنها

أعياد الكفار، التي غزت مناخنا الثقافي والاجتماعي، بسبب هذه المتغيرات الاتصالية المعاصرة.

وتزايدت بسبب ضغط هذه التقاليد الغربية المسيطرة الأصوات –التي تحاول شرعنة أعياد الكفار– تأويل المعطيات الشرعية التي تمنع مشاركة الكفار أعيادهم.

في حين أن العيد شعيرة لها خصوصية ولا يجوز مشاركة الأمم الكافرة الغالبة أعيادها.

وعن آيات الغزو والجهاد، ناقش الكاتب كيف يحاول المستكينون لثقافة السلطة الغالبة تحريف مفهوم الجهاد وليّ التأويلات التي تخص جهاد الطلب لمفهوم جهاد دفع فقط، ويخلص الكاتب إلى أهمية المحافظة على المفاهيم الشرعية ضد التزوير الذي يتم عبر تأثير موجه ومتنوع من ضغط الثقافة الغربية على النظم العربية لتمكين الخطابات الفكرية والدعوية المدجنة المنسجمة مع متطلبات النفوذ الأمريكي.

ومن أبشع تطبيقات الحريات الليبرالية التي ناقشها الشيخ والتي وقع فيها بعض الكتاب المحليين هو أنه طردا لأصلهم في حرية المخالف التزموا بأن من سبّ النبي صلى الله عليه وسم لا يجوز معاقبته بل يواجه الفكر بالفكر فقط.

وعبر قانون المتوالية الفكرية برزت انحرافات متتابعة في توسيع الحرية الليبرالية حتى وصل الأمر إلى هذه البشاعة في منح الحرية لمن سب النبي ﷺ.

وعرض الكاتب نماذج من تعامل أئمة وفقهاء وقضاة المسلمين مع من مسّ بجناب النبي ﷺ وهو ما لا مساومة فيه البتة وما يعكس مكانة النبي في نفوس هؤلاء المسلمين فلنقارنها بمكانته عند ضحايا الحرية الليبرالية الغربية.

لقد ختم الكاتب مناقشاته التي كانت عبارة عن نماذج وعينات تكشف لنا كيف تؤثر الثقافة الغالبة في تأويل الأحكام الشرعية لإخضاعها لهيمنتها. ومن درس هذه الأسئلة والنماذج دبّ إليه اليقين بأن القطب الذي تدور كرة الفكر اليوم حوله هو"سلطة الثقافة الغالبة".

ما عرضناه ليس كل تفصيلات الكتاب، وإنما ملخص مما أورده الكاتب في صفحاته الممتعة، فكان طرحا مميزا ازدان بأسلوب سهل مدعم بالأمثلة الحية والتحليلات المتزنة والخلاصات الذهبية.

فجزا الله الشيخ إبراهيم السكران عن أمة الإسلام خير الجزاء ونفع بعلمه وهمته وعبقريته.

مقتطفات أعجبتني:

- أنا لا ألوم الغربي أن يقيّم المسائل طبقًا لما تقرأه عينه الزرقاء. لكني ألوم العربي أن يقيم المسائل بعين مزرقة. صـ٣٦
- وينبوع الإحداث في دين الله كله ناشئ بسبب"ضعف تعظيم السلف" في عمق علمهم وكمال ديانتهم، كما أن صحة تدين المرء واهتدائه في دين الله فرع عن تعظيم السلف واعتقاد كونهم أكمل منا دينًا وعلمًا . صـ٥٣
- والمراد أن المسجونين في معتقلات الثقافة الغالبة يجعلون تحريف الأحكام الشرعية لتكون وسطًا بين فهم السلف والفكر الغربي؛ يجعلون ذلك هو الوسطية المحمودة التي جاء بها القرآن ، والواقع أن هذه هي الوسطية المردودة التي ذمها القرآن . صـ٦١

- ومن يقول لك إننا يجب أن نطور أحكام الإسلام لتتناسب مع الذوق المعاصر، ففي مقولته هذه"معنى ضمني" يخفيه ، وهو أنه يعتقد أن الذوق المعاصر أرقى من أحكام الوحي ! صـ١٠٣
- ليس الإسلام دينًا هشًا لنخشى عليه من الشبهات، بل قلوب بني آدم هي الهشّة وهي التي نخشى عليها ، فنحن لا نخشى على الأرواح التي تحمل الوحي أن تخسره بشبهة عارضة . صـ١٨٤
- وهكذا كانت سيرة أئمة وفقهاء وقضاة المسلمين، لم يكونوا يعتبرون عبارة فيها غضٌّ من مقام النبوة مسألة "خلاف فكري"و "وجهات نظر" تتم مناقشتها على طاولة الحوار ، بل كانوا يعتبرونها قضية تعرض على سيف القضاء الشرعي، بالطرق المشروعة، ويختص بتنفيذها وليّ الأمر فلا يفتأت عليه. صـ٢٣٥. وما يفسده اللسان من الأديان أضعاف ما تفسده اليد. (ابن تيمية).

♦♦♦♦♦♦♦

مآلات الخطاب المدني

لإبراهيم السكران

خطّ الشيخ الدكتور إبراهيم السكران مناقشة رائعة لمآلات الخطاب المدني الجديد والتي سلّط خلالها الضوء على أحد أهم الظواهر التي شهدتها الساحة الإسلامية بعد المنعطف التاريخي في 2001م و تحديدا بعد 2003م تاريخ سقوط بغداد الحزين.

توصيف أقلام الخطاب المدني

لقد تمكن الشيخ من توصيف حالة أقلام الخطاب المدني توصيفا دقيقا يؤكد بكل أسف أنها انحرفت لعلمانية صريحة تمارس التحييد العملي لدور النص في الحياة العامة وانهمكت في مناهضة الفتاوى الدينية والتشغيب عليها وانجرّت إلى لعب دور كتاب البلاط فأراقت كرامتها ودبجت المديح وأصبحت تتبرم باللغة الإيمانية وتستسذجها وتتحاشى البعد الغيبي في تفسير الأحداث بل تفاقم الوضع إلى التصريح باعتراضات تعكس قلقاً عميقاً حول أسئلة وجودية كبرى.

لقد رفعت هذه الأقلام لواء التعليق خلف كل حدث أمني بلغة تحريضية ضد كل ما هو"إسلامي"، وغدت مولعة بالربط الجائر بين أحداث العنف والمؤسسات الدعوية وبالغت في الاستخفاف بكل منجز تراثي في حين احتفت بالأدبيات الفرانكفونية في إعادة التفسير السياسي للتراث وأنه حصيلة صراعات المصالح وتوازنات القوى وليس مدفوعاً بأية دوافع أخلاقية أو دينية. بل وتجرأ بعضهم إلى

اعتياد اللمز في مرويات السنة النبوية وخصوصاً مصادرها ذات الوزن التاريخي واعتبارها مصدر التشوش الاجتماعي المعاصر.

استخدام اللغة الناعمة في التعامل مع خصوم الحل الإسلامي

وفي ذات الوقت الذي يجحف فيه هؤلاء بحق النص والتراث والمؤسسات الإسلامية، يتعاملون على النقيض تماما مع خصوم الحل الإسلامي، أين تجد اللغة الناعمة البشوشة في التعامل معهم واعتبار حقهم في الحرية والتعبير، والتفهمَ الودود للدراسات التجديفية والروايات العبثية والتصفيقَ المستمرَّ لكل ما هو"غربي" بطريقة لا يفعلها الغربي ذاته وعَرْضَ الأعلام الغربية بلغة تفخيمية وَقُوْرة وإسقاطَ التجارب العلمانية في التاريخ الأوروبي على مجتمعنا بشكل لا يليق بشاب مسلم – كصراع الكنيسة مع العلم والثورة الفرنسية وعصر الأنوار ونحوها– والتركيز على أخطاء المقاومة أكثر من أخطاء المحتل والمطالبة المستمرة بمواجهة المشروع العسكري الغربي بورود السلام الغاندية.. إلى آخر سلسلة التطورات الموجعة.

السبب وراء التجني على أصحاب الرؤية الإسلامية

ويرى الشيخ السكران أن تضخم هذه التورمات جاء في سياق التفاعلات الحادة والاستفزاز المتبادل مع المنتديات الإنترنتية المتخصصة في الإسفاف والتجني والمتقنعة بلبوس الاحتساب الفكري، بحيث صار الخطاب المدني الجديد تدفعه مشاعر النكاية والعناد ضد البغي الإلكتروني إلى الإمعان في مناقضة الرؤية الإسلامية. ومع الأسف فإن هذا الخطاب الجديد لا يُستهان به كونه أصبح خطابا نشطا ومتناميا في أوساط الشباب المولعين بالثقافة وذوي المنزع الفكري، ويحظى بحفاوة المؤسسات الإعلامية من صحف وفضائيات وغيرها، حيث ستظل فرص الشاشة

والعمود الصحفي مشهداً خلاباً لا تقاومه غريزة تحقيق الذات المتوقدة بداية العمر فيرضخ المثقف/الشاب لشروطها ليحتفظ بها.

الانقلاب المعياري

وفي تفصيل لقسمات الإنقلاب المعياري لخص الشيخ واقعنا اليوم كمشهد إعادة تقييم جذرية وشاملة تمس العناصر الجوهرية لرؤيتنا الفكرية أو ما وصفه الكاتب حالة انقلاب حاد في ''جدول القيم'' حتى أصبح ''هرم الأولويات''يقف مقلوباً على رأسه!

لقد طالت هذه الانقلابات المفاهيمية: الموقف من التراث والموقف من الغرب والموقف من المؤسسات الدعوية والموقف من خصوم الحل الإسلامي والموقف من واقع مجتمعنا المعاصر والموقف من الدولة العربية الحديثة...

قراءة نصوص الوحي والتراث الإسلامي قراءة مدنية

ولعل أبرز ما ينادي به منتجو هذا الخطاب هو قراءة ''نصوص الوحي'' ونصوص ''التراث الإسلامي'' قراءة مدنية. قراءة موجهة تبحث عن أية مضامين تدعم ''المدنية'' ثم تؤوِّل ما يتعارض معها فتصبح فرادة الفقيه داخل هذا الاتجاه تابعة لقدرته في توفير الغطاء الشرعي لمنتجات الحضارة وبحسب إمكانياته في تأويل ما يتعارض معها وتخريجه بشتى المخارج فينحرف بذلك عن قراءة الوحي قراءة ''صادقة'' تتجرد للبحث الدقيق عن المراد الإلهي!

المساهمة التي يمكن لنا تقديمها للعالم

والسؤال المؤلم الذي يطرحه الشيخ في مناقشته: ما هي المساهمة الحقيقية التي يمكن أن نقدمها للعالم إذا كان قصارى ما نقوله للغرب هو إن ممارساتكم وسلوكياتكم

يمكن تخريجها على بعض الأقوال الفقهية لدينا أو يحتمل أن تدلّ عليها بعض الأدلة؟ واستطرد الشيخ بعد هذا السؤال في بسط النماذج التفسيرية لهذه الظاهرة والتي يراها بعض النقاد ترجع لسبب''الانبهار بالغرب'' الذي يعتبره الشيخ أحد النتائج وليس العامل الحاسم.

وأما بعض النقاد فيرجع السبب ''للعقلانية''، ولكن الشيخ يرى أنها ظاهرة تفتقد للنظرية الفعلية في ''مصادر المعرفة'' فهي تارة مع العقل، وتارة مع النص، وتارة مع الذوق الشخصي، وتارة مع المألوف، وتارة ضد هذه كلها فهي تدور مع المنتج الحضاري الجديد بغض النظر عن علاقته بمصادر المعرفة.

وبعض النقاد ذهب لتفسير بعيد تماما بأنها امتداد تاريخي لمدرسة ''المعتزلة''، وقد أبعدوا النعجة ذلك أن مدرسة المعتزلة مدرسة دينية متزمتة، مدرسة غلو لا مدرسة تساهل، بل إن المعتزلة أشرف بكثير من الخطاب الفرانكفوني المعاصر.

ويرى الشيخ أن النواة الخفية وراء هذه التحولات الجذرية والحادة في المواقف والرؤى هي ''المغالاة في قيمة المدنية والحضارة'' بمعنى أن النموذج التفسيري الذي يقدم إجابة دقيقة حول تطبيقات هذه الظاهرة هو ما يمكن تسميته ''غائية الحضارة'' و ''مركزية المدنية''.

ينابيع الغلو المدني

وتناول الكاتب بعد ذلك ينابيع الغلو المدني، الذي يرى أن أربعة ظروف رئيسية كانت وراء تشكيل أضلاع الوعاء الجوهري لتناميه ألا وهي:

- مناخ سبتمبر.
- والضخّ الفرانكفوني.
- وحفاوة وسائل الإعلام.
- ورد الفعل تجاه البغي الإلكتروني.

العلمانية العربية قبل وبعد 1984م

ويصل الكاتب إلى سؤال: ما الفرق بين العلمانية العربية ما قبل (1984م) والعلمانية العربية ما بعد (1984م)؟ [وهو العام الذي احتضن واقعة صدور أول حلقة من سلسلة ''نقد العقل العربي'' للمفكر المغربي ذائع الصيت مُحَّد عابد الجابري والذي دشّن العهد الجديد لتلمود العلمانية العربية التوفيقية].

بمعنى: ما سرّ الجاذبية في دراسات العلمانية العربية الحديثة التي خلبت أذهان الشباب الإسلامي وجعلته يُقْبِلُ بنهم على هذا اللون من الدراسات والأبحاث؟

ويلخص الشيخ الجواب في أنه التحول من ''الاستهداف المباشر للشريعة'' إلى ''إعادة تفسير التراث'' من خلال الأدوات التي تطرحها العلوم الإنسانية الحديثة أو بشكل آخر القفز من الإشكالية الأنطولوجية إلى الإشكالية الإبستمولوجية. والذي يعد مصدر الجاذبية والإثارة لدى القارئ الإسلامي ومع ذلك فإن لحظة انتقال هذه الشريحة الشبابية بين المدرستين لم تكن مجرد لحظة تفاعل طبيعي مع رافد ثقافي معين، بل شهدت ارتجاجات فكرية مذهلة كانت نتيجة لصدمة انقلاب السؤال المركزي بين المدرستين.

السؤال المركزي بين مدرستين الفكر الإسلامي والفرانكفونية

فالسؤال المركزي في مدرسة الفكر الإسلامي كان سؤال''انتصار الإسلام''، ويدخل في ذلك سائر ما تم تطويره من ''مفاهيم دعوية'' تشكل نسيج هذا الفكر : كمفهوم الحل الإسلامي، وتحكيم الشريعة، والتزكية الإيمانية، والعمل الجماعي، وفقه الواقع، والتعدد التنظيمي، والعمل التربوي، وإنكار المنكرات، وتوعية الجاليات، وتفعيل المساجد، والأمن الفكري، وحراسة الفضيلة، والإعلام الإسلامي، وتضميد جراحات المسلمين، وإعداد القوة، ونحوها من المفاهيم الإسلامية وصيغ العلاقات العريقة في هذا الخطاب.

أما السؤال المركزي للمدرسة الفرانكفونية فقد كان ''سؤال الحضارة''ومن ثم محاسبة التراث، والاتجاه الإسلامي، والمجتمع العربي، والدولة العربية الحديثة: على أساس الاقتراب والابتعاد عن ''النموذج الغربي الحديث''، حيث كان النموذج الغربي الحديث هو المعيار الضمني غير المعلن، وإن كان النصّ المغاربي في كثير من الأحيان يتظاهر بخلاف ذلك.

مما جعل انتقال هذه الشريحة الشبابية —موضع الدراسة– بين المدرستين ليس انتقالاً خطياً تراكمياً من مدرسة إلى التي تليها، بقدر ما كان استقالة فكرية غير وديّة من معسكر سابق وتسجيل لعضوية جديدة في المعسكر المقابل.

نزول الخطاب المدني من أعواد المنبر إلى قفص الاتهام

ويرى الشيخ أن نزول الخطاب الإسلامي من''أعواد المنبر'' فترة التسعينات إلى ''قفص الاتهام'' بعد سبتمبر بدد شيئاً من جاذبيته الاجتماعية، وفتح المجال لتسويق خطابات أخرى لا تتكئ على نجاحها الخاص، بقدر ما تتكئ على غياب منافسها العنيد. وهذا يعني أن الخطاب الإسلامي المعاصر سيسترد عافيته وموقعه

الاجتماعي الريادي بمجرد تجاوز هذه الأزمة والتخلص من الآثار الأمنية الحادّة لحادثة سبتمبر.

قانون المتوالية الفكرية

تحول الشيخ بعد هذا البسط إلى مناقشة قانون المتوالية الفكرية لفهم تطورات ظاهرة الخطاب المدني وكيف بدأت بإشكاليات تجديدية اجتهادية مشكورة ثم انتهى كثير من كتابها إلى مآلات مؤلمة مذمومة وبتمايز فريقين:

فريق تيقظ لبطلان الأساس الضمني الذي انبنت عليه هذه الأبحاث وهو غائية الحضارة أو مركزية المدنية، فانبنى على ذلك بطلان أكثر النتائج التي تضمنتها هذه الأبحاث من تبخيس التراث وتوقير الغرب ومن ثم التنبّه للأداتين الأثيرتين في هذه المدرسة لتهشيم التراث وهما أداتي (التسييس والمديونية).

وفريق آخر —وهم الأكثر– فقد استسلم — لا شعورياً — للأساس الضمني في هذه الأبحاث وهو مركزية المدنية لكنه حاول —بحسن نية أيضاً– أن يذب عن دينه وتراثه وأمته بإثبات أن الوحي والتراث يتضمنان أولوية المدنية والحضارة أصلاً، ومن ثم تحول إلى هاجس التفسير المدني للتراث فأخذ يبحث داخل مضامين الوحي والتراث عن أية مشاهد تتوافق مع المدنية الحديثة، وانساق في نقد كل ما لا يتوافق معها داخل التراث.

وما زاد في تأجيج هذا الجموح الشبابي حفاوة كثير من المؤسسات الإعلامية بذلك مدفوعة بتصفية حسابات قديمة مع ما تسميه الإسلام السياسي، فالمؤسسات الإعلامية كائنات سياسية لها أجندتها الخاصة وانحيازاتها العميقة ولكن لها أدواتها الخاصة في الاستقطاب والتوظيف بما يتناغم مع بنيتها مثل: منصب كاتب عمود صحفي أو مشرف صفحة الرأي أو مقدم تلفزيوني أو معد برامج أو ضيفاً دائماً

يوضع تحت اسمه خبير في الجماعات الإسلامية ونحوها من المناصب الإعلامية التي تخطف لبّ الشاب في عصر الشاشة.

الغايات والنتائج التي سعى لها الشيخ السكران

وإجمالا من خلال هذه المناقشة سعى الشيخ السكران إلى جملة من الغايات والنتائج نذكر منها[1]:

- أن العبودية هي الغاية الكبرى أما العلوم المدنية فهي وسيلة تابعة لها.
- أن التنوير الحقيقي هو الاستنارة بالعلوم الإلهية التي تضمنها الوحي وأن الظلامية والانحطاط الرئيسي هو الحرمان من أنوار الوحي مهما بلغت درجة العلوم المدنية.
- أن أشرف مراتب العمارة هي العمارة الإيمانية وأن جوهر وظيفة الاستخلاف هو تمكين الدين.
- أن الغلو المدني هو ينبوع الانحراف الثقافي وجذر التخبطات الفكرية المعاصرة.
- أن الإسلاميين ليسوا ضد المثاقفة ولكن لديهم موقف تفصيلي يفرّق بين الانتفاع والانبهار، ويفرّق بين مستويات الإنتاج في الحضارات الأخرى.
- أن خطاب أنسنة التراث آل إلى تغييب دور النص في تشكيل التراث ورد العلوم الإسلامية إلى عنصرين: الثقافات السابقة وصراعات المصالح، بما ترتب عليه انفصال الشاب المسلم عن نماذجه الملهمة.

[1] الدرر السنيّة.

- أن المغالاة في مفهوم الإنسان آلت إلى طمس المعايير القرآنية في التمييز على أساس الهوية الدينية.
- أن التبرم بمرجعية الوحي، والإزراء بالقرون المفضلة، واللهج بتعظيم الكفار، من أكثر شعب النفاق المعاصرة التي تستدعي التحصين الإيماني.
- أن المغالاة في النسبية يقود إلى العدمية، بما يترتب عليه خسارة فضيلة اليقين ومنزلة الإحسان، والإغراق في الارتياب والحيرة واللاحسم.
- أن الغضب لله ورسوله إذا انتهكت محارمهما قيمة محمودة وليس توتراً ولا نزقا ولا دوغمائية ولا وصاية ولا إقصاء.
- أن الاستغراق في ربط الشعائر بعلل سلوكية محضة، أو ربط التشريعات بحكم اجتماعية محضة، من أعظم أسباب توهين الانقياد وذبول الدافعية.
- أن تعظيم الكلي مع تجميد تطبيقاته يؤول إلى تعظيم شكلي نظري لا حقيقة له، لأن الجزئي معتبر في إقامة الكلي.
- أن الاستقامة الدينية ليست لمجرد السلامة من النار، بل لها آثار دنيوية كبرى في جلب الخيرات ودفع الكوارث.
- أن الضعف البشري في تأويل النص باتجاه رضا الناس حقيقة لا يستهان بسطوتها على العامل للإسلام الشغوف باستمالة المدعوين.
- أن استفراغ الوسع والاستطاعة في إعداد القوة واتخاذ الإمكانيات من الواجبات الشرعية المحكمة.

وفي الختام يؤكد الشيخ السكران أن الدعوة إلى تجديد منهج قراءة النصوص بما يعارض منهج القرون المفضلة مؤداه تجهيل وتضليل تلك القرون المفضلة في أهم

المطالب ومصادمة قطعيات النصوص في تقرير اهتدائهم وبصيرتهم، إذ الفضيلة ملازمة للاهتداء ولاتكون الفضيلة مع الضلالة.

لقد برع الشيخ السكران في إيفاء هذا البحث حقه وتميّز ببناء محكم ومتين وحجج قوية وبراهين، فأضاف جهدا طيبا مباركا للمكتبة الإسلامية يحفظ الأمة من شبح الانحراف العقدي وأخطاء الجهلة وتربصات الأعداء فجزا الله الشيخ عن أمة الإسلام خير الجزاء ونفع بعلمه وعمله.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كتاب السرطان الأحمر

لعبد الله عزام

السرطان الأحمر، هكذا اختار الشيخ عبد الله عزام – تقبله الله– أن يعنون كتابه الذي سبر أغوار الشيوعية الملحدة في تسعة فصول مرتبة، وهي الفكرة الخبيثة التي يعتبرها الشيخ عبد الله أضخم معول غرس في أعماق البشرية في العصر الحديث. كيف لا ويعود أصل صناعتها إلى الأصابع اليهودية اللئيمة، وتزداد أهمية هذا الطرح مع تواجد الأحزاب الشيوعية العربية الناعقة، وقد فصّل الشيخ قصة انهيار الشيوعية نظريا وعمليا وأسباب انهيارها ببراعة ملفتة.

الإهداء

واستهل الشيخ هذا الكتاب بإهدائه إلى الذين يريدون معرفة الحق، وفتح أبصارهم على النور وينشدون إنقاذ أنفسهم من أن يكونوا فرائس سهلة مستساغة بين أنياب الذئاب ومخالب الوحوش. حسب تعبيره.

الجو العام الذي نبتت فيه الماركسية

تناول الشيخ في الفصل الأول، الجو العام الذي نبتت فيه الماركسية. حين كان العقل الأوروبي يتقبل في القرن التاسع عشر كل ما فيه عداء للدين أو للتفكير الغيبي، لأنه خاض معركة مريرة شرسة لتحطيم قيد الكنيسة الجبار، ويقول ماركس في أطروحته التي كتبها سنة 1841م: "إن الفلسفة تتبنى شعار "بروميثوس"، أنا ضد كل الآلهة، فعمم هذا الشعار على كل أرباب الأرض والسماء الذين ينكرون

على الوعي البشري أن يكون الإله الأعلى، فهي تأبى أن يكون له منافس"، هذه العقلية الأوروبية كانت تبحث عن بديل لإله الكنيسة الذي تركته وهربت منه لتسد الفراغ الكبير في حياتها، فماذا صنعت؟ لقد طرحت العقل إلها بديلا عن إله الكنيسة عن طريق المدرسة العقلية المثالية بشقيها: الشق الذي يؤمن بإله مع اضطراب في التصور ويقود هذا الجناح "هيجل"، فهيجل يعتقد بوجود إله لكنه يرى أن الإله هو العقل الكبير أو المطلق، والشق الإلحادي الذي ينكر الإله بالمرة وزعيمه "فشتة".

لقد كان الجو الذي نشأت فيه الماركسية مشحونا بالعداوة للغيب، مطبوعا بطابع الكراهة للدين، ومن هنا ندرك أن الماركسية فرع لشجرة المادية التي غرست في أوروبا لخنق شجرة الكنيسة ثم اقتلاعها، أو أحد المسامير الكبيرة التي دقّت في نعش الكنيسة.

ماركس والماركسية

وفي الفصل الثاني تحدث الشيخ عن ماركس والماركسية، وماركس الذي عاش 65 سنة هو حفيد الحاخام "مردخاي ماركس" اليهودي، ولذا فإن بعض علماء التاريخ يرى أن الماركسية هي تفسير يهودي للتاريخ، ورؤيا توراتية تلمودية للحياة والناس، وقد كان أبوه في بداية حياته يهوديا اسمه "هرشل"، ثم تنصر وغيّر اسمه إلى "هنريخ"، وقد أشار بعض المؤرخين أن تبديله لدينه كان حيلة اقتصادية ليستطيع كسب قوته في مجتمع نصراني، وقد أرجع بعضهم نظرة ماركس الى الدين (من أنه حيلة ووسيلة للعيش من خلال خداع الناس) إلى هذه الحادثة بالإضافة إلى الجو العام الأوروبي.

كما كان ماركس تلميذا لـ "موسى هيس" اليهودي صاحب كتاب"من روما إلى القدس" ولقد تأثر به ماركس وقال: "لقد اتخذت هذا العبقري (هيس) لي مثالا

وقدوة، لما يتحلى به من دقة التفكير، واتفاق آرائه مع عقيدتي وما أؤمن به أنه رجل نضالي ومفكر وسلوك".

ووصف الماركسي "أوتورهل" صاحب كتاب (كارل ماركس) وصف ماركس بأنه كان على الدوام متقلبا مبتئسا حقودا، لا يزال في تصرفه عرضة لتأثير سوء الهضم وهياج الصفراء، وكان موسوسا يغلو كجميع الموسوسين في متاعه الجسدي. ومن المعروف أن ابنتي ماركس ماتتا منتحرتين.

ثم إن الأصول الفكرية للنظرية الماركسية مستمدة من المدارس الفكرية التي مرّ ذكرها في الجو العام الذي مهّد للماركسية، وخاصة مدرستي هيجل (العقلية المثالية) وكومت (الحسية الوضعية).

ويرى ماركس أن العباقرة السياسيين والمفكرين تنتجهم الظروف الإقتصادية وأن أيّ تغير في المادة والإقتصاد بالذات، يتبعه تغيّر في عالم النفس، لأنه ينعكس على العقل خلقا وسلوكا ودينا وسياسة، ومن خلال الصراع ينتقل المال من البرجوازيين إلى العمال ثم إلى الدولة التي هي (جامع القضية ومقابل القضية)، وهذا هو المجتمع الشيوعي.

ويمكن تلخيص نظرية ماركس هذه بالتالي: "كل مجتمع يحتوي نقيضه الذي يسقطه ويقوم مقامه، وهذا المجتمع الجديد يحوي في طيّاته نقيضه الذي سيسقطه ويحل محله، وهكذا دواليك إلى أن يقوم المجتمع الشيوعي الذي لا يحوي نقيضا، ولذلك فهو دائم مستمر أبدي".

وهناك قانون آخر يعتمد عليه ماركس للثورة العمالية وهو (قانون الفائض: ربح الرأسمالي) فماركس يرى أن الفائض هو نتيجة عرق العمال ودمهم. كما يرى ماركس أيضا أن صراع الطبقات حتمية تاريخية وجبرية لا مفر منها وهذا سيؤدي

حتما إلى قيام دولة العمال في العالم ثم الوصول إلى الشيوعية حيث يملك الشعب كل شيء، وكل شيء في المجتمع يصبح شائعا مباحا كالجماعات البدائية الأولى.

ويرى ماركس أنه من أجل انتصار البروليتاريا لا بد من تأجيج نار الحقد وإثارة روح الإنتقام في قلوب العمال ضد الرأسماليين في كل مكان على وجه الأرض، وعليه فإن الرحمة والبرّ والشفقة لا تناسب الثوري، ولا تتفق مع الشيوعي عند ماركس وتلاميذه.

الثورة البلشفية

وفي الفصل الثالث، كشف الشيخ خبايا الثورة البلشفية، حيث اختارت اليهودية العالمية لينين اليهودي ليكون المنفذ للثورة البلشفية، وقد تسلل اليهود إلى المناصب الكبرى في بريطانيا، وحدث حادث جلل بالنسبة لليهود، فقد اغتالوا الإمبراطور الأسكندر الثاني سنة 1881م فاندفع الشعب الروسي يعمل في اليهود تقتيلا وتشريدا، وأقاموا لهم مجازر كثيرة فصمم اليهود على الإنتقام من الشعب الروسي، هذه نقطة مهمة في تحويل أنظار اليهود نحو روسيا لتكون محطة للإنقلاب الثوري البلشفي، بالإضافة إلى نقاط أخرى.

وبعد أن حطم اليهود الكاثوليكية بالثورة الفرنسية اليهودية سنة 1789م أرادوا تحطيم الأرثوذكسية في روسيا.

مع العلم أن اليهود يمثلون كثرة في روسيا، إذ أن عددهم عند الثورة كان حوالي سبعة ملايين وخاصة في مدينة بطرسبيرغ (لينين جراد) التي كانت فوهة بركان الثورة.

وساعدهم في ثورتهم مساحة روسيا الواسعة وثروتها المعدنية والزراعية، وفقر الشعب الروسي، مما يمكن شراء ضميره بالمال، وظلم القيصرية وتحيزها، وتسلط الأرثوذكسية وانحرافها ووقوفها تبرر ظلم القياصرة.

وقد رصد اليهود الأغنياء الخمسة وهم: (شبسو وليفي وشيف ورون ومونيمر) ألف مليون دولار للثورة، وأعدوا مليون يهودي وقودا للثورة.

فالثورة البلشفية يهودية التفكير والتخطيط والتمويل والتنفيذ، وقد صدر في الأسبوع الأول للثورة قرار ذو شقين بحق اليهود:

1. يعتبر عداء اليهود عداء للجنس السامي يعاقب عليه قانونيا.
2. الإعتراف بحق اليهود في أنشاء وطن قومي في فلسطين.

ولم يقف اليهود خلف الثورة البلشفية فقط بل كانوا وراء كل الثورات في المناطق الأخرى في ذلك الوقت.

الشيوعية في العالم العربي

وفي الفصل الرابع كان الحديث عن الشيوعية في العالم العربي أين أشرف اليهود على تنظيم وتكوين الأحزاب الشيوعية فهم قادتها ومخططوها، يقول الشيوعي اليهودي الفرنسي "رودنسون": ”لم تتأسس أحزاب شيوعية ومنظمات متعاطفة إلا في الحلقات الأجنبية في البلدان العربية في مصر وفلسطين، ولم تجد إلا القليل من الأتباع وكانت مقطوعة عن واقع تلك البلاد، وانتهت دون أن تثير اهتماما كبيرا“.

وذكر الشيخ بتفصيل وافي الأسماء اليهودية في البلدان العربية: كالحزب الشيوعي في مصر وفي العراق والحزب الشيوعي السوري اللبناني والفلسطيني الأردني، ولفت الشيخ الانتباه إلى أن محمود درويش وسميح القاسم الشاعران الفلسطينيان الشيوعيان –الممثلان للأرض المحتلة –كان يحملان علم إسرائيل في مؤتمر صوفيا الدولي.

موقف الشيوعية من الإسلام والمسلمين

وفي الفصل الخامس كان موقف الشيوعية من الإسلام والمسلمين، فالشيوعية حرب على كل الأديان، وفي مقدمتها الإسلام، وأما الديانة اليهودية فلم تتعرض لها الثورة البلشفية، وكانت حجّة لينين أن اليهود شعب مظلوم يحتاج إلى دينه ليستعيد حقوقه المغتصبة! وقد عرض الشيخ أقوالهم الصادمة في الأديان مثل قول ماركس:''الدين أفيون الشعوب''، و''إن الله لم يخلق الجنس البشري بل الإنسان هو الذي خلق الله''.

ثم بناء على ما تقدم من مبادىء الشيوعية، فكل شيوعي كافر خارج من الإسلام هكذا خلصت فتوى جميع العلماء في العصر الحديث.

وهذا العداء للإسلام لم يكن باللسان فقط بل لم يشهد التاريخ في أحقابه مثيلا للمجازر التي أقامها الشيوعيون للمسلمين، ووقع حوالي (60-65) مليونا من المسلمين تحت وطأة الثورة البلشفية، في تركستان الشرقية وفي يوغسلافيا وفي القرم وفي القفقاس (بلاد الشيشان والشركس) وفي تركستان الغربية، حيث أثبت الإحصائيات الروسية أن ستالين قتل 11 مليونا من المسلمين واعتقل وجوّع الملايين وهدّمت مساجدهم ومُنعوا من أداء شعائرهم أو تعليم دينهم، وبينما كان عدد العلماء سنة 1917م (فيما عدا بخارى وخيوه) لا يقل عن (45339). أصبح عددهم في سنة 1955م (8052) إذ أن معظم العلماء سحق في الثلاثينات.

قضية الشيوعيين وفلسطين

الفصل السادس تناول قضية الشيوعيين وفلسطين أين تحدث الشيخ عن تخطيط البلاشفة واليهود لإسقاط الخلافة العثمانية وسلط الضوء على أبرز النقاط في المرحلة

التي سبقت التقسيم وهي تكوين وحدات عسكرية يهودية، معظم أفرادها من الروس واليوغسلافيين، والرومانيين، والبولنديين، والذين استقروا في فلسطين، ومن الفيلق اليهودي الذي حارب في صفوف الجيش البريطاني ضد الألمان والطليان في العلمين وصحراء ليبيا، ومن بين ضباطهم "موشي دايان" و"إسحق رابين"، وكانت الأسلحة تتدفق على اليهود من تشيكوسلوفاكيا بموافقة ستالين. وعلى البواخر اليوغسلافية والرومانية كانت الأسلحة تشحن بأمر موسكو تحت إشراف "موشي شاريت".

وجمع الشيخ أقوال الشيوعيين في الأمم المتحدة، مثل قول غروميكو – 2/5/1947م –: ”إن علينا أن نذكر دائما أن قضية فلسطين ليست سوى قضية اليهود، ولذا فلا مجال للبحث في هذه القضية بغير مراعاة مصالح اليهود والأخذ بعين الإعتبار قلقهم، ليس يهود فلسطين وحدهم بل اليهود في كل مكان“.

وكان مثل هذا الكلام المنقول حرفيا من ملفات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، يصفع كل شيوعي أحمر يتشدق بمقاومة اليهود أو يتاجر باسم فلسطين، ويخدع الجاهلين الذين لا يعرفون من أمر الشيوعية سوى أنها مقاومة الاستعمار والإمبريالية والمساواة بين الناس وإقامة العدالة الاجتماعية وهدم الفوارق الطبقية!

الشيوعيين العرب وفلسطين

أما الفصل السابع فركز على الشيوعيين العرب وفلسطين ففي سنة 1948م كان الشيوعيون العرب –من أبناء فلسطين– يكتبون إلى موسكو:”إن جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود هو الطريق الوحيد والوسيلة الناجحة لبلشفة العالم العربي“، وعندما كان قرار التقسيم في أروقة الأمم المتحدة ولم تفصح روسيا بعد عن قرارها

كان الشيوعيون العرب يهاجمون قرار التقسيم. وبعد أن أعلنت روسيا عن تأييدها الصارخ للقرار، عاد الشيوعيون العرب يؤيدون التقسيم.

وبعد قيام إسرائيل أخذ الشيوعيون ينادون بالصلح معها، فقد كان الشيوعيون يوزعون باستمرار مقالات "صموئيل ميكونيس" سكرتير الحزب الشيوعي الإسرائيلي التي كان ينشرها في جريدة ''الكومنفورم'' تحت عنوان ''في سبيل سلم دائم''.

وبعد قيام الثورة الفلسطينية واشتداد عودها اندسّ الشيوعيون في أوساطها وصاروا ينادون بمقالتهم (التفريق بين يهودي وصهيوني) وذلك لتمييع القضية الفلسطينية، قالوا ''نحن لا نقاتل اليهود الشرفاء إنما نقاتل الصهيونية''.

ويقول الشيخ معلقا: (لا ندري كيف نفرّق في الميدان العام بين يهودي شريف؟! على حد زعمهم وبين صهيوني، بينما يرى قادة المنظمات الصهيونية أن كل صهيوني يهودي، بل صهيون يطلق على الجزء الجنوبي من القدس ''جبل اليبوسيين''، ثم أصبح اليهود يطلقونه على القدس ويسمونها ''ابنة صهيون'' وفي التوراة ''ترنمي يا ابنة صهيون، اهتفي يا ابنة أورشليم'').

ويقول هرتزل: "الصهيونية هي العودة إلى حظيرة اليهودية قبل أن تصبح العودة إلى أرض الميعاد".

ومع ذلك أخذوا يثقفون الشباب الثقافة الثورية، ثقافة "ماو" و"جيفارا" وثورية "لينين" و"ستالين"، وآراء "ماركس" وحياة "كاستروا"، لقنوا الشباب عشرين اصطلاحا يلفون ويدورون حولها مثل إمبريالية، برجوازية، ديماغوجية، بروليتاريا وظن الشباب أنهم قد ملكوا شيئا جديدا استبدلوه بدين الله –عزوجل– واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وضاع الشباب بين متاهات الفكر ومعميات المادية وتحولت المعركة من جهاد ضد اليهود، ومن كفاح في سبيل الله لاسترجاع الأرض والمقدسات إلى

حرب ضد الرجعية (دين الإسلام)، إلى صراع داخلي نقل إلى كل بيت بين الأخ وأخيه، وبين الابن وأبيه، وبين الفتاة وأمها.

وعندما كان الشباب المسلم المجاهد الذي يحمل السلاح يرفع الآذان في التجمعات الفدائية، كان أبناء لينين وماوتسي تونغ يصطفون يلغون ويرفعون أصواتهم قائلين ''إن تسل عني فهذي قيمي أنا ماركسي لينيني أممي''، وصدق الله العظيم القائل (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون).

أما القيم والأخلاق فليس لها أي اعتبار عند الثوريين الاشتراكيين، ففي مظاهرة في الجامعة الأردنية سنة 1979م كانت أصوات هؤلاء ترتفع فتقول مطالبنا شرعية ''خبز وأمن وحرية والشاب بجنب الصبية''.

سقوط الماركسية نظريا وتطبيقيا

وفي الفصل الثامن، نقلنا الشيخ إلى سقوط الماركسية نظريا وتطبيقيا أين قدم نقد النظرية الماركسية، والناظر في جدل ماركس يرى أنه أقامه على أساس (نظرية النقيض عند هيجل)، والنقيض والأنا والعقل والمطلق التي استعملها هيجل كلها عبارة عن قضايا تجريدية مثالية منطقية لا أساس لها في عالم الواقع، ويرى ماركس أن العقل الإنساني ليس له قيمة أمام أهمية المادة وأسلوب الإنتاج ونوع الآلة، ولكن ناقدوه يقولون إن العقل هو الذي فجّر الطاقة واكتشف الكهرباء وطوّر الإنتاج واخترع الآلة البخارية.

ويقول ماركس إن عملية التفكير عند هيجل هي خالقة العالم الخارجي، وأما ناقدوه فيقولون إن الفكرة ما هي إلا العالم المادي بعد أن يعكسه ذهن الإنسان ليس شعور

الناس هو الذي يحدد وجودهم ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم، وهذا تجاهل كبير لحقيقة الإنسان.

ويرى ماركس أن أي تغير في العالم إنما هو نتيجة حتمية لتغيير وسيلة الإنتاج، ولكن ناقدوه يقولون أي تغير في آلة الإنتاج حصل عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا التغيير الكبير الذي أحدثه في تاريخ العالم! وهل الاقتصاد هو الذي أظهر أمثال شكسبير، ودانتي ولوثر، وكلفن، ومونتسكيو؟ وكيف نفسر أحداث الجهاد الأفغاني تحت قيادة أبناء الحركة الإسلامية والعلماء، إذ أن منطق التحليل الماركسي يقتضي أن تكون يسارية شيوعية فكيف رفعت راية الإسلام؟ الذي هو رجعية عند ماركس؟!

ويرى ماركس أن الدين خادم للرأسمالية والإمبريالية، فكيف قام الدين في أفغانستان ضد الملك ظاهر شاه ثم ضد داود العلماني ثم ضد تراقي وحفيظ الله أمين وبابرك وروسيا ثم هزم روسيا.

ويقول ماركس إن تغير آلة الإنتاج يؤدي إلى تغير النظام، ولكن واقع أمريكا وأوربا يكذب هذا الإدعاء، فخلال قرنين من الزمان وصلت أمريكا في التكنيك إلى ما يشبه الخيال مع ثبات نظامها.

ثم إن هنالك لحظات حاسمة في التاريخ يتخذ فيها رجال مواقف تنقذ أمة بكاملها أو تدمرها، فلحظة قرار أبي بكر لتسيير الجيوش في حرب الردة، أنقذت الأمة المسلمة من خطر محدق وفناء قد يكون محققا.

وحول سقوط التطبيق الماركسي وفشل الثورة العمالية يقول الشيخ ”لقد استفادت الثورة البلشفية من عوامل كثيرة حتى قامت على أقدامها، فقد استفادت من خروج روسيا منتصرة من الحرب العالمية الأولى بعد الذي عاناه الناس من ظلم القياصرة

ورجال الدين واستفادت الماركسية من الجشع الغربي لامتصاص دماء البشر، ومن أجل إبقاء الأسعار مرتفعة كانت آلاف الأطنان من الثمار والحبوب وعشرات الألوف من الخنازير تلقى في البحر، بينما الجوع ينشب أظفاره في خناق الناس كما يقول آرثر كستلر، واستفادت الماركسية من انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية فابتلعت دول أوربا الشرقية ".

كل هذه العوامل –وأخرى غيرها– أدت إلى إرتماء الشباب الأوربي في أحضان الشيوعية، ثم اكتشفوا زيفها فخرجوا يائسين ساخطين، يقول "سيلوني" مازحا لرفيقه "توكلياني" معبرا عن نفسية هؤلاء الشيوعيين الساخطين "إن المعركة الفاصلة ستكون بين الشيوعيين وبين من خرجوا على الشيوعيين".

والنتيجة الأخيرة الأكيدة لقد سقطت الشيوعية من جميع النواحي من ناحية المساواة والحرية والديمقراطية والإنتاج ومن الناحية الإنسانية والشعورية والفكرية والفنية ومن ناحية وحدة الأمل والهدف والفكر.

أسباب انتشار الشيوعية في العالم الإسلامي

وفي الفصل التاسع، فصّل الشيخ الأسباب التي مهدت لانتشار الشيوعية في العالم الإسلامي وقسّمها كالتالي:

1. الإستعمار الغربي للعالم الإسلامي.
2. أجهزة التعليم والتوجية التي ركز عليها الغرب في العالم الإسلامي.
3. الإنفتاح على اليهود وموالاتهم.
4. المظالم الاجتماعية والتفاوت الكبير في مستوى العيش.
5. انتشار العقيدة الفاسدة والأساطير الخرافية باسم الإسلام.

6. خيانة علماء الإسلام.

7. تقاعس المسلمين عن الجهاد.

8. تبني الحركات القومية للخط العلماني.

9. تهاون الدول في بلاد المسلمين بالبعثات إلى العالم الشرقي.

الخلاصة

لقد سقطت الشيوعية لأنها منهاج بشري وهذه عاقبة كل منهاج بشري يصطدم مع منهاج الله، لأنه يتحطم على فطرة الإنسان. قال تعالى (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار).

فلابد للإنسان أن يرجع الى الله إذا أراد أن يسعد.

ولابد للإنسان أن يلتزم الجماعة المسلمة المجاهدة لإقامة منهج الله.

لابد للإنسان أن يثوب إلى منهاج الله إذا شاء أن يجد إنسانيته.

لابد للإنسان أن يئوب إلى خالقه إذا أحب أن يستقر في ضميره ويهدأ في وجدانه ويجد حلاوة الحياة في أعماقه، (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

ويختم الشيخ العارف كتابه الزاخر السرطان الأحمر ببسط لقانون العودة إلى الله والذي يتمثل في:

1. العمل مع جماعة إسلامية متوازنة الفكر تعنى بالتوحيد، وتعرف المخططات العالمية ضدها، وتربي أبناءها على التوحيد، والعبادة، وتهتم بالنوافل.

2. تبدأ الجماعة الإسلامية الجهاد، فتكون كالصاعق الذي يفجر طاقات الأمة.

3. تستمر المعركة التي تقودها الحركة الإسلامية .

4. تنتهي المعركة بإذن الله بانتصار الشعب المسلم الذي تقوده الحركة وتقوم الدولة الإسلامية.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

معركة الإسلام المقبلة..

مسلمون وسط آسيا

لأبي مصعب السوري

في بحثه القيّم، الباحث الشيخ عمر عبد الحكيم المشهور بأبي مصعب السوري، سلّط الاهتمام بشكل خاص على ما يسمى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية، حيث عرض أهم المعلومات التي يجب أن يعرفها المسلمون عنها وتناول أهميتها ودورها في نهضة أمة الإسلام، فضلا عن أهمية الجهاد فيها ليطالب في الأخير بضرورة تكاتف المسلمين لدعم قضية المسلمين في هذه المنطقة.

وقد استهل مقدمة بحثه بالتأكيد على أن ساحات الصراع المهمة في الأيام المقبلة هي: أفغانستان – وسط آسيا – اليمن – المغرب الأقصى – بلاد الشام – وأكناف بيت المقدس. ذلك لتوفر معطيات معينة تجعلها كذلك بالنظر لتاريخ الصراع وجذوره وتاريخ الصحوة الإسلامية والحركات الجهادية المعاصرة وإرهاصات المواجهة.

تضمن بحث الشيخ جملة أبواب تناول في أولها نبذة تاريخية منذ الفتح الإسلامي إلى احتلال الروس، وتحدث في الثاني عن الغزو الروسي لبلاد آسيا الوسطى الإسلامية ومراحله، وبسط في الثالث واقع جمهوريات آسيا الوسطى بعد الاستقلال وتفكك

الاتحاد السوفياتي، وسلط الضوء في الرابع على أهمية الجهاد في أفغانستان وآسيا الوسطى وأسباب أولويته. ثم عرّج في الباب الخامس على علاقة الجهاد في أفغانستان وآسيا الوسطى بالجهاد العام بين المسلمين والنظام العالمي الجديد ليختم سفره الثري بالمعلومات التاريخية والتحاليل الاستراتيجية بخاتمة أدرج فيها دراسة عن تركستان الشرقية.

منطقة وسط آسيا

وحسب جمع الباحث فإن منطقة وسط آسيا الإسلامية تشمل اصطلاحا، المساحة الواقعة بين الصين شرقا وإيران وبحر قزوين غربا، وما بين الهند والباكستان جنوبا إلى حدود سيبيريا وجبال الأورال شمالا، وتضم وفق مصطلح التقسيم السياسي الاستعماري الحديث كلا من : تركستان الشرقية وعاصمتها أرومتشي، وقيرغيزستان وعاصمتها بتشكيك، وأوزبكستان وعاصمتها طشقند، وكازاخستان وعاصمتها

المآتا وتركمانستان وعاصمتها عشق آباد، وطاجيكستان وعاصمتها دوشنبيه وباكستان وعاصمتها إسلام أباد، وأفغانستان وعاصمتها كابول. لتغطي مساحة هذا التواجد الإسلامي المهم والخطير في هذه المنطقة نحو 8 مليون كم مربع، يقطنها ما يزيد على 200 مليون نسمة من المسلمين السنة الأحناف.

وتزداد أهمية هذه المنطقة للعوامل السياسية والاقتصادية والبشرية والتاريخية والثقافية الهامة، فهي منطقة استراتيجية جدا وتشكل عقدة فصل ووصل مهمة بين الصين وشرق آسيا شرقا، وبين بحار الجنوب والمنافذ إلى منطقة الخليج العربي ومناطق النفط والممرات المائية الهامة.

كما أنها منطقة تزخر بالثروات الطبيعية الهامة ففيها كميات احتياطية هامة جدا من البترول والغاز والذهب واليورانيوم والأحجار الكريمة وأكثر من تسعين نوعا من المعادن الصناعية الأساسية.

وتعد منطقة غنية جدا بالأمطار والثلوج وبالتالي بالأنهار والبحيرات والمياه الجوفية الوفيرة وهذا يعني بالإضافة لخصوبة الأرض وتنوع الطقس واعتداله ثروات زراعية تفيض كثيرا عن الاكتفاء الذاتي.

وتحتوي أفغانستان ودول وسط آسيا مخزونا استراتيجيا هائلا من المخلفات الصناعية والمنشآت التي خلفها الاتحاد السوفيتي بتفككه من كل المستويات من الصناعات المتوسطة إلى التكنولوجيا الثقيلة وأهم ذلك المخلفات والمنشآت الصناعية العسكرية وهو ميراث دولة عظمى تفككت وترث هذه المنطقة قسما هاما من تركتها. كما تحتوي المنطقة عواصم إسلامية هامة جدا تعتبر قبلة للمسلمين في المنطقة وحواضر إسلامية ذات تاريخ مهم وحاضر ومستقبل أهم على مستوى حركة المسلمين مثل بخارى وسمرقند وترمذ وطشقند وخوارزم وكابل ومرو.

أيضا تحتوي المنطقة على نحو 350 ألف يهودي أصلي مقيم في المنطقة ينتظرون خروج آخر ملوك بني إسرائيل فيهم وهو الدجال المشار إليه في الآثار وكتب الأديان السماوية الثلاثة.

جهاد وسط آسيا

وتعيش المنطقة صحوة إسلامية عامة وجهادية مبشرة بعد السنوات الطوال التي مرت على الاحتلال الروسي الغاشم وتسلط النظام الشيوعي بعد ذلك، وذلك بفضل الله ثم الجهاد الأفغاني الذي أدى لتحطيم الاتحاد السوفيتي حسب تفصيل الباحث.

وتتعرض المنطقة لغزوة صليبية عارمة تندفع لتحل محل الصليبية الروسية التي أجلت عن المنطقة ويتجلى ذلك باحتلال اقتصادي مكشوف عبر آلاف الاستثمارات الكبرى للأمريكان والدول الغربية في المنطقة التي تشرف اليوم على عملية نهب استعماري اقتصادية فظيعة، يرافق هذا الاحتلال الاقتصادي احتلال صليبي ثقافي عبر غزوات المبشرين والكنائس المنظمة التي هجمت على تلك البلاد فور الانفتاح الذي أعقب ذهاب الروس والانفتاح الديني، الذي أعقبه بعد فترة غورباتشوف.
وتعتبر المنطقة بغزارة السكان فيها سوقا تجاريا مهما ومستهدفا من الدول الصناعية الكبرى.
كما أن الفقر والعوز حالة عامة في طبقات المجتمع ويرى الباحث هذا عاملا استراتيجيا مهما في الدعوة والحركة والجهاد.

ثم إن المسلمون في هذه المنطقة عرفوا بشكمتهم العسكرية وبأسهم في القتال وشدة

شوكتهم. وهم متعاطفون ومتعطشون لدينهم الذي حجبوا عنه عقودا طويلة ويعيشون على ذكريات وثارات تاريخية مريرة مع الصليبيين الروس. وهذه المواصفات تشكل أرضية مهمة لقيام الجهاد في المنطقة.

وأوضح الباحث أن قيام دار الإسلام وحكم الشريعة وإمارة المؤمنين في أفغانستان وما فيها من الرصيد الجهادي العسكري من السلاح والخبرات والمجاهدين وتجمع كثير من خبرات وزبدة شباب الجهاد والصحوة الإسلامية المباركة من مختلف مناطق العالم يشكل قاعدة انطلاق وخطوط إمداد استراتيجية بالغة الأهمية لمستقبل الجهاد في المنطقة.

ليصل الباحث أخيرا إلى أهم الأسباب التي ترفع من أهمية هذه المنطقة وهو ارتباط مستقبل حركة الاسلام ببشائر ونبوءات آخر الزمان باجتماع أهل الحق وانطلاق راياتهم الظافرة حيث أن هذه الديار والنبوءات والبشائر متوافقة مع ما أدلى به أهل الكتاب أيضا.

ففي هذه المنطقة وسط آسيا من أوزبكستان إلى أذربيجان يخرج الدجال آخر ملوك يهود وينطلق بعد أن يتبعه سبعون ألفا من يهود أصفهان. حيث ما تزال الجالية اليهودية الإيرانية مقيمة مع باقي الجاليات يحرم عليهم الهجرة إلى إسرائيل كما كل يهود العالم بانتظار ملكهم المسيح الدجال.

ومن هذه المنطقة شمال أفغانستان إلى النهر وما وراءه تخرج الرايات السود التي يكون فيها أو في شوكتها تمكين المهدي المنتظر الذي يملأ الدنيا قسطا وعدلا ويحمل رايات أهل الإسلام إلى النصر والظفر إلى ملاحم آخر الزمان في الشام مع اليهود والنصارى.

ولعل أبرز ما ميّز هذا البسط من قبل الباحث، هو تضافر تلك النبوءات الشرعية والاستقراءات السياسية مع الأسباب العسكرية لتشكيل بعدا استراتيجيا مهما جدا جدا للتحرك الإسلامي والجهادي في هذا المكان وهذا الزمان بالذات حسبما خلص الباحث.

تاريخ دخول الإسلام وسط آسيا

وقد قدّم الباحث أيضا بين طيّات بحثه، نبذة تاريخية عن وسط آسيا من الفتح الإسلامي إلى احتلال الروس لخص فيها تاريخ دخول الإسلام للمنطقة عبر حركة الفتوح منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، والتي استمرت في عهد عثمان بن عفان ﷺ ثم على يد القادة والفاتحين في صدر وزمان بني أمية، ولكن لم يستتب فيها حكم الإسلام بقوة إلا في عهد الفاتح الكبير قتيبة بن مسلم الباهلي لتعرف المنطقة ازدهار الحضارة الإسلامية في مرحلتها الذهبية، من أواخر القرن الأول إلى أوائل القرن السابع هجري.حيث بدأ اجتياح التتار بقيادة جنكيز خان للمنطقة سنة 660 هـ/1220م وسقطت عقبه الدولة الخوارزمية التي كانت تحكم المنطقة آنذاك.

ولكن ظهور أحد ملوك المغول في تركستان وأواسط آسيا وهو بركة خان بن جوجي الذي غير اتجاه المغول باعتناقه الإسلام. فحكم المنطقة من 654 هـ – 665 هـ كان السبب وراء انتشار الإسلام في القبيلة الذهبية التي سكنت أعالي بلاد ما وراء النهر، وبدأ يحارب هولاكو الذي تحالف مع نصارى المشرق، ثم استمر التناوب على حكم البلاد من قبل قادة مسلمين حتى انتهى بها المطاف أن انقسمت في حكمها بين عدة أسر ضعيفة إلى مطلع القرن الرابع عشر الهجري لتسقط لقمة سائغة تحت الغزو الروسي القيصري.

تأتي بعد هذا مرحلة الغزو الروسي لبلاد آسيا الوسطى الإسلامية وهو عنوان الباب الثاني من البحث سرد فيه الباحث تفاصيل هذا الغزو وأسباب تمكنه من البلاد وكيف استطاع ستالين أن يخدع الكثير من القيادات الدينية الإسلامية من أعلى ممثلي الإفتاء إلى كثير من عوام المسلمين.

وبعد وصول غورباتشوف للحكم بعد حركة البروستريكا وتفكك الاتحاد السوفيتي زالت الشيوعية واستقلت شكليا جمهوريات وسط آسيا ولكنها بقيت مرتبطة مع روسيا بإدارة عسكرية وتواجد عسكري فعلي لا سيما على الحدود وخصوصا في طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان.

ثم أنشأ بإشراف أمريكي رابطة دول وسط آسيا لمقاومة الإسلام الزاحف من أفغانستان.

في الباب الثالث عرض الباحث خلاصة أحوال جهموريات آسيا الوسطى الإسلامية، بعد رحيل السلطة الروسية، والتي تجلت في استمرار العلاقات الأمنية والعسكرية مع الجيش والأمن الروسي لا سيما على الحدود مع أفغانستان وارتباط الدول الخمسة بإشراف روسي أمريكي في حلف دول وسط آسيا وهو حلف أمني عسكري لمواجهة مد الجهاد والإسلام القادم من أفغانستان.

وشهدت المنطقة حلول الاحتلال والنفوذ الأمريكي اليهودي الغربي وما يتبع ذلك من سيطرة اقتصادية وثقافية وحركات تبشير وتنصير مكان النفوذ الروسي الشيوعي

السابق.

وأعقب ذلك تحول الكوادر والأحزاب والشخصيات الشيوعية الأساسية إلى العمالة للأمريكان تحت مسميات جديدة قومية ووطنية وديمقراطية.

واستمرت على إثره سياسة العداء للإسلام وبشكل سافر على يد المرتدين والشيوعيين من أبناء المسلمين في البلد بعد أن كانت هذه المهمة موكلة للاستعمار الصليبي الروسي حسبما رصد الباحث. وبذلك شنّت هذه الحكومات حربا مكشوفة على الحركات والدعوة والنشاطات الاسلامية المختلفة كالمدارس ودور التحفيظ ومظاهر الالتزام. فطاردت بشكل خاص التوجهات الجهادية كما في عموم بلاد الإسلام تحت مسمى مكافحة الإرهاب.

طاجيكستان

وفي طاجيكستان وصلت المواجهة مع الاسلاميين لحد الصدام المسلح وتمكنت الحكومة من تدجين الحركة الاسلامية الأساسية فيها وهي حركة النهضة فيما استمرت أجزاء من الحركة ذات التوجه الجهادي مسيطرة على مناطق وأجزاء من طاجيكستان.

أوزبكستان

أما في أوزباكستان ومع ميلاد بوادر جهادية وصلت لحد التخطيط لقتل رئيس الدولة وتنفيذ بعض الأعمال الجهادية العسكرية حصلت موجة من الاعتقالات تلتها محاكم صدرت فيها أحكام ظالمة بالإعدام على ستة مجاهدين وبالسجن على عشرات آخرين وأثبتت هذه المواجهة الدعم والتعاون الأمني الإقليمي على مستوى الدول الخمسة والدولي بإشراف أمريكي وهو تعاون عكس تخوفهم الشديد من قفزة

يحققها جهاد المسلمين في آسيا الوسطى بعد الانتصار الزاهر الذي حققوه في أفغانستان وأدى لقيام نواة حقيقية لدولة الإسلام المرتقبة ونهضة المسلمين المنشودة حسبما يرى الباحث.

في الباب الخامس تطرق الباحث لأهمية الجهاد في منطقة آسيا الوسطى وأسباب أولويته، ذلك لتضافر الأدلة والأسباب الاستراتيجية السياسية والعسكرية مع النبوءات والبشارات الواردة في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتي تعضدها النبوءات الواردة في آثار أهل الكتاب أيضا، مما يعطي الجهاد في هذه المنطقة ليس فقط أهمية بل أولوية على كافة الساحات الأخرى في المرحلة الحالية. ويوصي الباحث دعاة الإسلام والجهاد أن يولوا هذا الأمر عناية فائقة لسد الثغرات على شياطين الجن والأنس أن يدمروا آمال الإسلام والجهاد من هذا الباب الخطير ويوحدوا الجهود العربية والعجمية بصرف النظر عن أي شعار إلا شعار هذه الأمة (لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله) وقوله تعالى : (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) وقوله ﷺ (دعوها فإنها منتنة) فإن آمال أهل الإسلام في المنطقة وما وراءها اليوم متعلقة برايات الجهاد في هذا المكان على حدّ قول الباحث.

الخاتمة

في الباب السادس الخاتم وتحت عنوان علاقة الجهاد في أفغانستان ووسط آسيا بالجهاد القائم بين المسلمين والنظام العالمي اليهودي الصليبي الجديد، بسط الباحث أهمية الجهاد في هذه البلاد مرتكزا على نقاط شرعية واستراتيجية سياسية وعسكرية كثيرة سبق وأن ذكرها في بحثه وأضاف عليها، ضرورة وإمكانية توليد نواة جهادية مسلحة وصاحبة خبرة تمكن لدار الإسلام هذه وتوسع رقعتها وتتخذها منطلقا نحو ما يليها الأهم فالأهم والممكن فالممكن.

ثم إن البشائر والعلامات الشرعية السياسية والعسكرية تشير إلى ضرورة صمود ثلة من أصحاب العزائم على الدعوة والجهاد والهجرة لوضع القواعد الأولى لانطلاق الرايات السود بالفرج والفتح ونصرة المهدي الذي يملأ هذه الدنيا التي ملئت فعلا جورا وظلما بالعدل والقسط.

كما يرى الباحث أنها دار التقاط أنفاس وتجهيز وترقب للبشائر والنبوءات. ودار رباط وانتظار لملاحم آخر الزمان وآخر صراعات الحق والباطل. ودار هجرة بعيدا عن مفاسد الدنيا وضلالات قوانين الكفر وتحكم أقطاب النظام العالمي الجديد من اليهود والصليبيين والمرتدين والمنافقين على حدّ قوله.

فضلا على أنها دار جهاد وقتال وترقب للشهادة في سبيل الله والتعرض لنفحات الجنة . كما قال الباحث مستشهدا بقول رسول الله ﷺ :"من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ".

وأدرج الباحث في نهاية بحثة لمحة جغرافية عن تركستان الشرقية عرّج فيها على واقع الإسلام في البلاد والاحتلال الصيني لها، وما تلاه من استقلال والحكم الصيني الشيوعي فيها ومرحلة "ماوتسي تونغ" زعيم الحزب الشيوعي الصيني لتدخل القوات الصينية تركستان الشرقية في أكتوبر 1949م معلنة عهدا جديدا من الإرهاب والظلم في تاريخ تركستان الشرقية المسلمة. ثم بعد "ماوتسي تونغ" تحول

الصينيون من تطبيق سياسة الإرهاب المكشوف إلى ممارسة سياسة تطبيق الشيوعية العلمية والتصيين الثقافي لمحو معالم الحضارة التركستانية الشرقية الإسلامية.

كان هذا أبرز ما حمله بحث الشيخ أبو مصعب السوري، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا ونفع ببحثه ودراسته.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

سيناء بين أطماع الاستعماريين والصهيونيين

بقلم البنا وقطب والشريف

لا زالت سيناء محط اهتمام العقلاء والماكرين منذ أمد بعيد، ذلك نظرا لموقعها الجيواستراتيجي في ساحة الصراع في الشرق الأوسط، فهي تحاذي حدود أحد أقبح كيانات الاحتلال الذي لا يزال يحكم قبضته على فلسطين منذ أن نجح في التسلل تسلل السرطان الخبيث بين خلايا الجسد العربي ليبني له حصنا هناك على أرض الأنبياء وليلوح في الأفق بأطماعه اللئيمة في تحقيق حلمه المشؤوم "دولة إسرائيل الكبرى" الممتدة من النيل إلى الفرات.

وما يشد الأذهان عند تقليب صفحات ذلك الزمان، تلك الكلمات التي خطت منذ عشرات السنين لتحذر من واقع نعيشه عيانا اليوم وندرك مخاطره تماما كما أدرك مخاطره من سبق من فطناء.

إنني أتحدث عن مقالات كتبت بمداد ثلاث قامات سامقة في تاريخ الأمة المسلمة، حسن البنا، وسيد قطب وكامل الشريف رحمهم الله.

فدعونا نسلط الأنوار على هذه المقالات واحدة واحدة، لنستخلص القواسم المشتركة التي استشف غوامضها الراحلون الثلاث.

حسن البنا

سلط الشيخ حسن البنا الضوء على أهمية سيناء في مقالة له نشرها في جريدة ''الإخوان المسلمون'' اليومية في تاريخ 18 ذو القعدة 1365 هجري أثناء مفاوضة السلطات المصرية الإنجليز، وقد نبّه البنا للغة التي يخادع بها الطامعون الشعوب المسلمة بنشر تعاليم الاستعمار كالتي احتواها كتاب ''هنري مارون ''عن مصر والسودان، مثل أن مصر بلد زراعي، لا يمكن أن تقوم فيها الصناعات لعدم ملائمة جوها، ولخلوها من الخامات اللازمة والمواد الأولية الضرورية للنهوض الصناعي إلى آخر هذه الأقصوصة التي كذبها الواقع أوضح تكذيب.

وعلى هذه التعاليم تربى ساسة مصر القدامى باعتبار سيناء أرضا قاحلة ليس فيها ماء ولا نبات. فكان الهدف التقليل من قيمة سيناء وأهميتها، في حين هي من بقاع الخير والبركة والخصب والنماء، وما أجدبت إلا بسبب الإنصراف عنها وإهمالها. فذلك قوله تعالى (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين). فكيف تُهمل ثلاثة عشر مليونا من الأفدنة أي ضعف مساحة الأرض المزروعة في مصر مع إمكانية استنباط الماء منها بالطرق الإرتوازية، وإنشاء بيارات نافعة على نحو بيارات فلسطين، تنبت أجود الفواكة وأطيب الثمرات. وهو ما لم يغب عن ذهن اليهود المتربص، بل لا زالت هذه المعطيات والتطلعات على صفحات مسودات أطماعهم. فضلا عن كونها أرضا زاخرة بالمعادن والكنوز والبترول فوق ما يتصور الإنسان. وقد أكد الخبراء أن استنباط البترول من سيناء قد يفوق ما يستنبط من آبار العراق النفيسة.

سيد قطب

ثم بعد 6 سنوات أي في يوليو 1952م من تحذيرات البنا، أطلق سيد قطب صفارة إنذار جديدة على صفحات جريدة"الدعوة" الأسبوعية التي كان يصدرها في القاهرة بعض رجال الإخوان المسلمين، أين نبّه بدوره لأهمية سيناء وخطورتها كمجال حيوي للشعب المصري. لقد أبصر سيد كيف تقترب إسرائيل يوميا من حدود سيناء، تحت مظلة السياسة اليهودية– الإنجليزية التي عزلتها عن مصر طوال فترة الإحتلال، والتي جاءت لتتفق مع أطماع اليهودية العالمية.

وقد ذكّر سيد بمعطيات تاريخية ومعتقدية مهمة لشبه جزيرة سيناء فهي تحتوي على أقدس مقدسات اليهود، فمن جانب الطور الأيمن نودي موسى وعليه تلقى الألواح، وبها صخرة العهد، وسيناء هي أرض التيه، ما يجعل أطماع اليهود تحوم في فلكها، وقد تربى أبناؤهم على عقيدة أن جزيرة سيناء هي قلب مملكتهم الموعودة. وما فلسطين إلا جزءًا صغيرا من تلك المملكة التي تضم سيناء وفلسطين وشرق الأردن وقسما من سورية والعراق حتى الرافدين.

ولعل هذا ما يفسر إيفاد لجنة إنجليزية يهودية قضت في سيناء خمس سنوات كاملة منذ 1906م بهدف فحص واستطلاع المنطقة والتنقيب على المياه الجوفية والأراضي الصالحة للزراعة والمعادن الجيولوجية بصفة عامة، وكذا المناخ والطرق والأهمية الإستراتيجية، ليخلص تقريرها الشامل في النهاية إلى صلاحية سيناء لإسكان مليون نفس وإعاشتهم.

وما يعكس أهمية هذه الأرض في أعين اليهود، إقامتهم استحكامات قوية على الحدود، أسكنوا فيها الفتيان الفدائيين بزوجاتهم وأولادهم، يقطعونهم الأرض، ويبنون لهم مساكنهم تحتها –لا فوقها– ويمدونهم بالمال ليستصلحوها.

هكذا تناول سيد قضية سيناء لاستصراخ النائمين في العالم الإسلامي، ليصحوا على مطامع الصهيونيين في هذه الأرض.

كامل الشريف

ثم بعد ثلاث سنوات أخرى من صيحة سيد قطب، وتسع سنوات من تنبيه حسن البنا أي في شهر رمضان 1374 هجري، أ عادت مجلة "المسلمون" الشهرية التي كانت تصدر يومها من دمشق نشر مقال الشيخ حسن البنا، وأعقبته بتعليق جديد كتبه الأستاذ كامل الشريف، الذي قاد فدائي الإخوان المسلمين في كل من حرب فلسطين عام 1948م، ومعارك قناة السويس عام 1952م.

وعلق الأستاذ الشريف على اهتمام البنا بهذا الجزء المهمل من الوطن المصري وتوجيه حديثه كعارف مدقق، طالب بإقامة مشروعات زراعية وصناعية على أسس علمية مدروسة، وحذر من الخطر اليهودي الذي يتطلع إلى ابتلاع هذه الأصقاع الواسعة – ومما يزيد في قيمة هذه الآراء– أن البنا كتبها في عام 1946م، أي قبل قيام دولة إسرائيل وقبل أن تصبح أطماع اليهود في سيناء جزءًا هاما من سياستهم التوسعية الإستعمارية.

وبيّن الشريف جغرافية سيناء التي تتجلى على شكل هضبة عالية مثلثة الشكل

تقريبا، تمتد قاعدة مثلثها من "رفح على البحر الأبيض المتوسط إلى طابا على البحر الأحمر" وتندفع رأسه جنوبا في البحر الأحمر مكونة خليج العقبة وخليج السويس.

ما يؤهلها لأن تشكل مانعا طبيعيا قويا يحمي مصر من جهة الشرق، ويتحكم في البحرين الأبيض والأحمر، وهذا ما لاحظه بدوره القائد الفرنسي نابليون حينما اجتازها في طريقه إلى سوريا وأمعن النظر فيها فقال ما معناه "أن لا أحد يستطيع أن يدخل مصر من هنا إذا استطاعت أن تحتفظ بهذا الدرع الصخري". وهذا كذلك ما أثبته التاريخ وحملات الغزو على مصر، وضرب الشريف مثلا الحرب العالمية الأولى 1914-1918م، حين فطن البريطانيون إلى أهمية سيناء عسكريا في مواجهة الحملة التركية على قناة السويس فتقدم الأتراك لاجتياز هذه الصحراء

الواسعة، بجيشهم الكبير في ظروف قاسية حتى إذا ما وصلوا ضفاف القتال كانت قواهم العسكرية قد أنهكت بشكل شديد ولم يصمدوا أمام هجوم البريطانيين المضاد ما دفعهم للتراجع إلى فلسطين منهزمين واستمر تراجعهم إلى ما وراء حدود الشام، ما يعني أن مصير الحرب العالمية في الميدان الشرقي قد تقرر بين هذه الجبال الداكنة الصماء.

وهذا ما دفع البريطانيين لجعل سيناء تحت نفوذهم المباشر، فعينوا لها حاكما انكليزيا يتلقى تعليماته من وزارة الحرب البريطانية، وكان هذا مقدمة لسياسة بعيدة المدى تستهدف عزل سيناء عن مصر عزلا تاما، فلم يكن يدخلها المصريون أنفسهم إلا بإذن خاص.

وما أثار إعجاب الشريف أنه إلى لحظة كتابته مقالته في (رمضان 1374 هجري) كانت القيود التي فرضها الإنكليز على سيناء لتنفيذ سياسة مرسومة لا تزال سارية على الرغم من تبديل الحكام الإنجليز بحكام مصريين، وعلى الرغم من تقلص النفوذ البريطاني عن مصر تقلصا تاما، بقيت منطقة ممنوعة في وجوه المواطنين المصريين.

وأما عن أطماع اليهود في سيناء والتي يربطونها بالمعتقدات اليهودية والتاريخ الإسرائيلي فيرى الشريف أن قصص التلمود ونبؤات الأقدمين وأسطورة الشعب المختار، ليست في الواقع إلا وسيلة من وسائل التعبئة والإقناع يستخدمها القادة والموجهون الصهاينة لدفع الشباب اليهودي نحو هذه الأهداف التوسعية الاستعمارية، وإن كانت لا تمثل في الواقع أمرا مهما فالتوسع الاستعماري يعتمد على النفوذ قبل أية حجة.

ويرى الشريف في ختام مقالته أن على حكومة مصر، إدراك واجبها حيال هذه المنطقة، فتسرع إلى تعميرها وتعمل على إدماجها في مصر إدماجا تاما برفع القيود

الشاذة التي وضعها المستعمرون، وبذلك تؤمن حدودها الشرقية وتفتح أمام أبنائها مجالا للعمل والإستثمار.

ولا شك أن إثارة قضية أهمية سيناء من قبل الكتاب الثلاث وفي أزمنة متفرقة أعقبه مقالات عديدة من كتاب آخرين على مختلف الأزمنة والمناسبات، تتوحد رؤاهم معها في ضرورة احتواء سيناء ومنعها من الهيمنة اليهودية والغربية، وتخلص رسائلهم إلى أن إهمال سيناء سينتهي بلا أدنى جدال لعواقب وخيمة سترى فداحتها الأجيال المقبلة إن لم يستدرك المصريون هذه الحقيقة ويحفظوا دفاعاتهم أمام شبح الأطماع اليهودية.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كتاب الماجريات

لإبراهيم السكران

الماجريات

”الماجريات“ هو العنوان الذي انتقاه فضيلة الشيخ إبراهيم بن عمر السكران حفظه الله لكتابه الصادر في شعبان 1436 هـ /يونيو 2015م.

والماجريات مصطلح يعني (ما جرى به العمل) فـ «ال» للتعريف، و«ما» الموصولية بمعنى الذي، و«جرى» بمعنى وقع وحدث، وجُمعت بالألف والتاء لتصبح «الماجَرَيَات».

وفي كتب التاريخ وعند أدباء العصر الإسلامي الوسيط كابن خلكان والسخاوي فقد استعمل هذا المصطلح تحت معنى الحوادث والوقائع والأخبار، كما استعان به علماء السلوك في توصيف اشتغال المرء بالأخبار والأحداث التي لا نفع فيها. قال ابن القيم رحمه الله: "فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به... ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة، ومحقت بركة لقائه، فإنه يضيع الوقت في الماجريات ويفسد القلب". وكما قال الغزالي عن الماجريات :"الحرص على معرفة ما لا حاجة به إليك، أو المباسطة بالكلام للتودد، أو تزجية الأوقات بما لا فائدة منه". وأشار لها ابن الجوزي في (أخبار الساسة والرؤساء وقصصهم، وأخبار الأسعار والسلع) التي لا زالت تستهلك إلى يومنا هذا.

الكتاب في أسطر

وفي سفر امتد على طول 344 صفحة، ومن خلال مدخل وانطلاقة وثلاثة فصول وخاتمة، تناول الشيخ إبراهيم السكران مسألة الانشغال بهذه الماجريات، برزت

خلالها براعة الشيخ في سبر أغوارها وتتبع مسالكها ليعالجها معالجة تأصيلية شرعية طبية نفسية.

والكتاب ليس مجرد مناقشة علمية وعقلية لمسألة الماجريات، بل في الواقع يقدم لنا برنامجا عمليا في إدارة الأفكار وإدارة الأوقات، يحتاجه كل منشغل بالدعوة إلى الله والإصلاح ومواقع التواصل الاجتماعي.

لقد استفتح الشيخ تأليفه بقصة طالب علم أراد أن يبدأ بحثه العلمي، فجلس بعد صلاة المغرب عازما على التركيز في عمله وقد جمع مراجعه وحاسوبه وأوراقه وأقلامه. ثم ما أن التفت إلى جواله وفتح أحد برامج التواصل نسي تماما ما كان قد عزم عليه، ليجد نفسه مستغرقا بعمق في التصفح، حتى استيقظ على صوت صلاة العشاء. وهكذا انتهى به الأمر بأن أضاع وقت بحثه فلم ينجز منه شيئا البتة. وأشار الشيخ إلى أن هذا السيناريو يتكرر مع كثيرين بأشكال متفاوتة.

تقسيم الماجريات

وصنف الشيخ الماجريات إلى اجتماعية وشبكية وسياسية، ونبّه إلى ضرورة ضبطها بعدد من الموازين حتى تؤتي أكلها. وأكّد أن إهمال هذه الموازين عاقبته إما الانهماك والإفراط المؤدي إلى ضياع الأوقات وقلة الإنتاج والسلبية والانتقال من موقع المؤثر إلى موقع المتفرج، وإما الانقطاع الكامل المؤدي إلى العزلة السلبية والانتقال من موقع المؤثر أيضًا، لكن إلى موقع الهارب من الواقع.

رسالة الشيخ في الكتاب

ورسالة الشيخ لا تعني أبدًا الانقطاع الكامل عن الماجريات، ولكن ضبطها بميزان عدل فتنفع بدل أن تضر، والشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه.

وقد ركّز الشيخ في طرحه المتين المتزن على طلبة العلم ومشايخه والدعاة والمصلحين نتيجة الشكاوى المؤلمة التي سجّلها أهل العلم والدعوة والإصلاح. وهذا ما يجعل هذه الشريحة من المعنيين بخطاب الشيخ في الصف الأول قبل غيرهم من فئات المجتمع.

أقسام الكتاب

المدخل الأول

وقد استهل الشيخ الباحث المدخل الأول ليبسط أمامنا مشهدا صادقا للواقع، ولتداعيات التأثير السلبي في الانهماك في التواصل الشبكي الذي بسببه تتعثر المشاريع والبرامج العلمية لشريحة مهمة من القراء وطلاب العلم، كما يرى أن خطورة المسألة تكمن في أن الشكوى تعدت شريحة الشاب حديث العهد بطلب العلم لتصل إلى الخاصة من أهل العلم والدعوة، وأسند طرحه بقصص واقعية ونماذج حقيقة.

المدخل الثاني

أما المدخل الثاني للكتاب فاستطرد فيه الشيخ في وصف إشكالية الانهماك السياسي الذي شغل جلّ وقت بعض الكوادر العلمية والإصلاحية والذين مع الوقت أصبحت متابعة الأخبار السياسية وتطوراتها هي جوهر نشاطهم اليومي بدل الانشغال بطلب العلم والدعوة التي هي واجبهم الأول، لتنتهي القصة بأن يثقل عليهم الواجب ويشق ويصبح التهرب وسيلة تمادي في الخطأ.

وباختصار فإن الشيخ قد نجح في تشخيص المرض النفسي المعروف بـ "اضطراب إدمان الأنترنت" والذي يشبه في أعراضه إلى حد كبير مرض الإدمان على

المخدرات والكحول والقمار، وكذا الإخفاق الدراسي، وتدهور الأداء المهني وغيره من أمراض.

المدخل الثالث

شخّص فيه الشيخ تداعيات الانهماك في متابعة هذه الأخبار والمهاترات الفكرية عبر الهواتف الذكية بشكل مبالغ فيه لدرجة الوصول إلى ضعف الهمة وتسيّد التفكير الأفقي، أين تعاني الضحية من انفصال تدريجي عن التنفيذ والانتاج وتبديد الزمن. وتتأزم الحالة أكثر مع البعد عن المشروعات العملية المنتجة وأصحابها لتسقط العزيمة بشكل متسارع.

وتظهر قوة هذا الفصل في استعراض الشيخ الكاتب لنماذج رائعة لخمسة أعلام من أعلام أمتنا المسلمة، يدعمها بالشواهد والتحليلات لما سماه التوازن المثمر في هذه المسألة، مع اختلاف الزاوية التي ظهر توازنهم فيها.

الحلول التي وضعها الشيخ لمسألة الانشغال في الماجريات

ذلك أن الشيخ لم يكتف بعرض التشخيص بل رأى ضرورة طرح بعض الحلول والأدوية الناجعة لهذه المسألة والتي منها بلا شك ضرورة معايشة تجارب المنجِزين في العلم والثقافة والإصلاح ومعايشة النماذج الحية التي طرح لها الأمثلة الباهرة. واختار الشيخ من هذه النماذج، العالم المصلح البشير الإبراهيمي ومالك بن نبي وأبو الحسن الندوي و د. عبد الوهاب المسيري و د. فريد الأنصاري، والتي أرى من الظلم تلخيص تفصيله لكل نموذج منها هنا، في بضعة سطور لن توفها حقها في الوصف والتعمق والتبصر واستخلاص الفوائد الثمينة التي يرمي لها باحثنا، وأنصح بضرورة أن يرجع القارئ للنص الكامل لها بتفاصيله في كتاب الماجريات.

ثم بعد استطراد في دراسة هذه النماذج المنتقاة بحكمة وذكاء خلص باحثنا من جديد إلى أهمية فكرة «التوازن» في مسألة الماجريات، مع التذكير بأهمية صرف نفائس الأوقات والأعمار في التحصيل العلمي النافع.

نهاية الكتاب

ويصل الشيخ مع نهاية كتابه إلى قاعدة ذهبية وهي أن أصل المسألة "مغالاة وإفراط في أصل صحيح مطلوب". وبأسلوب آخر فإنه يرى ضرورة التمييز بين فقه الواقع والغرق في الواقع، حتى لا نتجاوز القدر الذي نحتاجه من هذه الماجريات فنغرق غرقا سلبيا يمنعنا من الإنجاز والتقدم. أو نأسر أنفسنا في مقاعد المتفرجين بدل المؤثرين الفاعلين المنتجين. كما يرى ضرورة التمييز بين زمن التحصيل والمتابعة وزمن العطاء وفي هذا يضرب الشيخ المثال حول الشاب في سنواته الذهبية للتحصيل العلمي التي من المفروض أن تمثل مرحلة بناء لا عطاء. وأيضا يرى ضرورة التمييز بين توظيف الآلة والارتهان للآلة، توظيفها في نشر العلم والخير والدعوة والفقه والتدبر وتيسير العلم للناس والتوعية الحقوقية والطبية وغيرها، بدل من الارتهان الذي هو التحول من إنتاج أشرف ما يكون في هذه الوسائل من العلم والإيمان إلى تلقي واستهلاك أدنى ما تنتجه تلك الشبكات من السوء والضلال والانحراف، ومهاترات فكرية وشائعات سياسية. كما يرى الكاتب ضرورة التمييز بين فصل السياسة ومرتبة السياسة، فالسياسة لها منزلة في سلم المطالب، ومعنى ذلك أن المتخصص ينبغي له استيعاب تفاصيلها بقدر إمكانه، وأما غير المتخصص فيكفيه أن يعرف مجملات الواقع السياسي.

الانشغال بالماجريات عند علماء السلوك

لا شك أن طرح الشيخ إبراهيم السكران يصب في نفس خلاصات علماء السلوك، الذين حذروا من صحبة الماجرياتيين المضيعين أوقاتهم فيما لا ينفعهم لا دينًا ولا دنيا، كما حذروا من تبديد الطاقة الذهنية التي وهبها الله للإنسان بقدر معين في هذه الماجريات، كما قال ابن القيم: "أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة... وبإزاء هذه الأفكار (النافعة): الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق، ومنها الفكر في جزئيات أحوال الناس، وماجرياتهم، ومداخلهم ومخارجهم، وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة".

وبيّن علماء السلوك أن التطلع إلى الكمال يقتضي البعد والهرب من هذه الماجريات، قال ابن القيم عن الأخفياء: "أثقل شيء عليهم: البحث عن ماجريات الناس، وطلب تعرّف أحوالهم، وأثقل ما على قلوبهم سماعها، فهم مشغولون عنها بشأنهم"، وأنها قد تكون من لهو الحديث الذي قال الله تعالى فيه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [لقمان: ٦]، كما نص على ذلك شيخ التفسير ابن سعدي رحمه الله.

كذلك على نفس هذا النهج نصح ابن الجوزي رحمه الله حين قال: "ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة... ومنهم من يقطّع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين، والغلاء والرخص، إلى غير ذلك، فعلمت أن الله تعالى لم يُطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.. "..

خلاصة

في الواقع إن كتاب الماجريات، هو مطلب عام لكل مسلم ومسلمة متعلما كان أو عالما، يقدم خلاصة ثمينة في تهذيب النفوس وتزكيتها والمحافظة على طاقاتها من التبديد.

فعلى هذا المسلم وهذه المسلمة إدراك التوازن في معاملة نظم الاتصالات والوقوف الصارم مع الذات وإعادة تنظيم العلاقة لتكون متابعة منتجة وبقدر معلوم، لا يطغى اهتمامها بالأنترنت على مهامها في الحياة ولا عباداتها، ولا يكون الانشغال بمواقع التواصل الاجتماعي على حساب التحصيل العلمي والانجماع الإيماني والإنتاج الإصلاحي.

وفي وقت كثر في الكلام وقلّ فيه العمل والإنتاج فلا شيء أكثر ألما من توهم الماجرياتي أنه في قلب عملية التغيير والتأثير في حين لا يعدو كونه متفرجا! هذه كانت خلاصة درر الكتاب النافع الماتع"الماجريات" فلا يفوتن مسابق صيد المزيد والتبحر بعمق رزين والاستزادة لأفضل تحصيل.

جزا الله الشيخ إبراهيم خير الجزاء ونفع بعلمه وعمله أمة الإسلام قاطبة.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كتاب إدارة التوحش وأخطر مرحلة ستمر بها الأمة

لأبي بكر ناجي

نعرض اليوم ملخص كتاب "إدارة التوحش" للكاتب أبي بكر ناجي الذي ناقش مستقبل العالم الإسلامي والساحات الثورية والجهادية على ضوء معطيات الماضي والحاضر ورؤية الكاتب المستقبلية.

وهو التأليف الذي جلب له اهتمام الباحثين على اختلاف أصولهم بما فيهم الأمريكيين حيث قام مركز مكافحة الإرهاب في كلية ويست بوينت العسكرية بترجمته إلى الإنجليزية بعنوان"إدارة الوحشية"، وتم توزيعه على المسؤولين في الدوائر السياسية للحكومة الأميركية وفي وزارة الدفاع.

وقد استهل الكاتب سفره بمقدمة بسط فيها واقع هذه الأمة وكيف أنها انقسمت إلى جماعات تبنت كل جماعة منهاجها الخاص بها في العمل للنهوض بالأمة من جديد وفق منظورها ورؤيتها، فعرّف الكاتب الجماعات البارزة في ساحات العمل في الأمة كالتالي:

1. تيار السلفية الجهادية.
2. تيار سلفية الصحوة الذي يرمز له سلمان العودة وسفر الحوالي.
3. تيار الإخوان [الحركة الأم... التنظيم الدولي.]

4. تيار إخوان الترابي.

5. تيار الجهاد الشعبي [مثل حركة حماس وجبهة تحرير مورو وغيرها].

دراسة ونقد

ثم قدم الكاتب نقدًا لبرنامج كل جماعة ونقاط الضعف في استراتيجيتها في العمل الإسلامي مرجحًا الأفضل تقييمًا وتشخيصًا وتقديمًا من بين الجماعات وفق رؤيته.

وبعد هذه المقدمة الناقدة يعرض الكاتب توطئة لدراسته الموسومة بـ"إدارة التوحش... أخطر مرحلة ستمر بها الأمة" والتي هي عبارة عن خطوط عريضة لا تعنى بالتفاصيل وإنما تترك التفاصيل لفريقين، فريق المتخصصين في الفنون التي تتحدث عنها الدراسة وفريق قيادات الواقع في مناطق إدارة التوحش، وعندما تأتي بعض التفاصيل في ثنايا الدراسة؛ فإنما تأتي لأهميتها أو كمثال لشحذ الذهن.

أخطر مرحلة

ويؤكد الكاتب أن إدارة التوحش هي المرحلة القادمة التي ستمر بها الأمة، وتُعد أخطر مرحلة فإذا نجحنا في إدارة هذا التوحش ستكون تلك المرحلة –بإذن الله– هي المعبر لدولة الإسلام المنتظرة منذ سقوط الخلافة، وإذا أخفقنا –أعاذنا الله من ذلك– لا يعني ذلك انتهاء الأمر ولكن هذا الإخفاق سيؤدي لمزيد من التوحش...!! حسب تعبيره.

ويضيف الكاتب موضحًا بأن هذا المزيد من التوحش الذي قد ينتج عن الإخفاق لا يعني أنه أسوأ مما هو عليه الوضع الآن أو من قبل في العقد السابق "التسعينات" وما قبله من العقود، بل إنَّ أفحش درجات التوحُّش هي أخفُّ من الاستقرار تحت نظام الكفر بدرجات.

النظام الدولي

دراسة الكاتب أبو بكر ناجي استهلت بمبحث تمهيدي فصّل فيه واقع النظام الذي يدير العالم منذ حقبة سايكس بيكو، وكيف أصبحت الحكومات التي وضعت على الدول الإسلامية المقسمة أصبحت تدور في فلك النظام العالمي الذي تمخض بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، والذي كانت صورته المعلنة هيئة الأمم المتحدة وحقيقته قطبان (أمريكا وروسيا) هما عبارة عن دولتين يدخل تحت كل منهما معسكر من الدول الكبرى الحليفة ويتبع كل قطب عشرات من الدول التابعة.

وتلا تلك الفترة انهيار بعض الأنظمة وقيام أخرى إما لتخلي القطب عنها، أو عدم قدرته على حمايتها من السقوط، أو لقيام القطب الآخر بدعم مجموعة أخرى اخترقت هذا النظام وأسقطته وحلّت مكانه بأخذها بسنن كونية محضة.

وطبقًا للسنن الكونية المحضة نجد أن القوى التي يمكن أن ترجع الحكم لقيم وعقيدة المجتمع أو حتى ليس من أجل العقيدة والحق من أجل رد المظالم والعدالة التي يتفق عليها الجميع المؤمن والكافر قوتان:

الأولى: قوة الشعوب، وهذه تم تدجينها وتغييب وعيها بآلاف من الملهيات.

الثانية: والتي يمكن من خلالها إرجاع المجتمع –ولو جزئيًا طبقًا للسنن –إلى العدل وإلى عقيدته وقيمه؛ هي قوة الجيوش، وهذه تم إغداق الأموال المنهوبة عليها وشراؤها حتى لا تقوم بهذا الدور، بل تقوم بنقيضه.

الاستثناء

ويستدرك الكاتب، أنه رغم أنف الشيطان تبقى فئة قليلة من العقلاء والشرفاء تأبى الظلم وتنشد العدل، ولكن في الغالب ينتهي التفكير بهؤلاء الشرفاء بالانصراف عن فكرة تغيير تلك الأنظمة والرضا بالأمر الواقع والانطواء على أنفسهم حاملين المرارة في قلوبهم.

ومن يصدق مع نفسه الضعيفة منهم يستقيل من عمله العسكري وإلا فلا يلبث أن ينزلق إلى مستنقع الظلم والانحطاط تحت شعار "لا دين ولا دنيا" أو "لا خير وعدل ولا دنيا".. هكذا هي الصورة تدور في هذا الإطار منذ سقوط الخلافة.

وهم القوة

وتحت عنوان (وهم القوة مركزية القوى العظمى بين القوة العسكرية والجبارة والهالة الإعلامية الكاذبة)، شرح الكاتب كيف أن القطبان (أمريكا وروسيا) اللذان كانا يسيطران على النظام العالمي كانا يسيطران من خلال قوة مركزيتهما؛ أي القوة العسكرية الجبارة التي تصل من المركز للسيطرة على مساحات الأراضي التي تخضع لكل قطب بداية من المركز وحتى أبعد طرف من تلك الأراضي، والخضوع في صورته الأولية المبسّطة هو أن تدين تلك الأراضي للمركز بالولاء والتحاكم وتَجبي إليه المصالح.

ورغم أن هذه القوة جبارة –في حساب البشر–، وأنها تستعين بقوة أنظمة محلية من الوكلاء الذين يحكمون العالم الإسلامي، إلا أنها رغم كل ذلك لا تكفي؛ لذلك لجأ القطبان إلى عمل هالة إعلامية كاذبة تصور هذه القوى أنها لا تقهر، وأنها تحيط

بالكون وتستطيع أن تصل إلى كل أرض وكل سماء وكأنها تحوز قوة خالق الخلق، فكان هذا سبب ضعف في الواقع لا قوة -تصديق الدجل الإعلامي الكاذب-.

ورغم ذلك سجلت الأمة انهيار روسيا وسقوط جمهوريتها في الفوضى، لكن بسبب توفر عوامل معينة سرعان ما قامت في أغلبها إدارات دول -دون المرور بمرحلة إدارة توحش- نجح بعضها في الاستمرار حتى الآن.

ولكن في نفس الوقت، سرعان ما تمكن القطب الثاني -أمريكا- من تدارك الأمر، والاستمرار في التحكم في العالم من خلال تماسكه مع هالته الإعلامية؛ التي تعتبر أضعاف أضعاف الهالة الإعلامية للقطب المنهار.

أضعف من روسيا

وفي وقت انبهر فيه بعض المسلمين بقوة أمريكا يرى الكاتب أن البعض الآخر من أهل الصدق والجهاد كانوا يبصرون ضعف العدو وقلته ويرون أن شراسة الجندي الروسي أضعاف ما عند الأمريكي، مع العلم أن روسيا كانت تقاتل قريبًا من حدودها في حين أمريكا أبعد عن ساحات الحرب؛ ما يعزز نظرتهم لضعفها أكثر بالمقارنة مع روسيا.

خلاصة حركة التجديد المعاصرة

وسطر الكاتب الخلاصة التي خلصت إليها حركة التجديد المعاصرة بعد أن عركتها الأحداث والمعارك، وتراكمت لديها الخبرات خلال أكثر من ثلاثين عامًا، كان منها:

هدف أول: إسقاط جزء هام من هيبة أمريكا، وبث الثقة في نفوس المسلمين من خلال كشف الهالة الإعلامية الكاذبة بأنها قوة لا تقهر، وجعل أمريكا تستبدل

حربها على الإسلام من نظام الحرب بالوكالة إلى أن تحارب بنفسها؛ لتكشف أمام أعين شرفاء الشعوب، وقلة من شرفاء جيوش الردة أن خوفهم من خلع الأنظمة لكون أمريكا تحمي هذه الأنظمة ليس في محله، وأنهم عند خلع الأنظمة يمكنهم مواجهة أمريكا إذا تدخلت.

وهدف ثاني: هو تعويض الخسائر البشرية التي منيت بها حركة التجديد في الثلاثين عامًا الماضية عن طريق مد بشري متوقع يأتي لسببين:

1. الانبهار بالعمليات التي سيتم القيام بها في مواجهة أمريكا.
2. الغضب من التدخل الأمريكي السافر والمباشر في العالم الإسلامي.

أما الهدف الثالث: فهو العمل على إظهار ضعف القوة المركزية لأمريكا بدفعها إلى استبدال الحرب الإعلامية النفسية والحرب بالوكالة إلى أن تحارب بنفسها فينكشف للمترددين من جميع الطوائف والأصناف بل وينكشف للأمريكان أنفسهم أن بعد المركز الرئيسي عن الأطراف عامل هام جدًا في إمكانية حدوث الفوضى والتوحش.

التعريف بإدارة التوحش

ثم تناول الكاتب في المبحث الأول التعريف بإدارة التوحش وبيان السوابق التاريخية لها، على أن إدارة التوحش باختصار شديد هي: إدارة الفوضى المتوحشة!!...

أما التعريف بالتفصيل فهو يختلف تبعًا لأهداف وطبيعة أفراد هذه الإدارة؛ فلو تخيلناها في صورتها الأولية نجدها تتمثل في: إدارة حاجيات الناس من توفير الطعام والعلاج، وحفظ الأمن والقضاء بين الناس الذين يعيشون في مناطق التوحش، وتأمين الحدود من خلال مجموعات الردع لكل من يحاول الاعتداء على مناطق التوحش، إضافة إلى إقامة تحصينات دفاعية.

قد ترتقي إدارة احتياجات الناس من طعام وعلاج إلى تحمل مسؤولية تقديم خدمات مثل التعليم ونحو ذلك، وقد يرتقي حفظ الأمن وتأمين الحدود للعمل على توسيع منطقة التوحش.

لماذا إدارة التوحش؟

ويشرح الكاتب لماذا أطلق عليها "إدارة التوحش" أو "إدارة الفوضى المتوحشة"؛ ذلك لأنها ليست إدارة لشركة تجارية أو مؤسسة تعاني من الفوضى أو مجموعة من الجيران في حي أو منطقة سكنية أو حتى مجتمعًا مسالمًا يعانون من الفوضى، ولكن الأمر أعم من الفوضى.

بل إن منطقة التوحش قبل خضوعها للإدارة ستكون في وضع يشبه وضع أفغانستان قبل سيطرة طالبان؛ منطقة تخضع لقانون الغاب بصورته البدائية، يتعطش أهلها –الأخيار منهم، بل وعقلاء الأشرار– لمن يدير هذا التوحش، بل ويقبلون أن يدير هذا التوحش أي تنظيم أخيارًا كانوا أو أشرارًا، إلا أن إدارة الأشرار لهذا التوحش من الممكن أن تحول هذه المنطقة إلى مزيد من التوحش!!...

الصورة المثالية لمهمات إدارة التوحش

ثم يعقب الكاتب بتقديم الصورة المثالية لمهمات إدارة التوحش التي يرومها ليفصل أبو كبر ناجي في هذا الفصل السوابق التأريخية والمعاصرة لإدارة التوحش: سواء خلال السنوات الأولى من بعد الهجرة إلى المدينة أو على مدار تأريخنا الإسلامي.

وقد بسط الكاتب أمثلة عن إدارات التوحش بالنسبة للمسلمين وأشار إلى أن الكفار كان لديهم أيضا عشرات بل مئات الأمثلة لـ "إدارات توحش" أقامها الكفار في أوروبا وأفريقيا وباقي القارات في العصور السابقة.

في العصر الحديث

أما في العصر الحديث؛ فبعد معاهدة سايكس بيكو وارتقائها واستقرار وضعها بنهاية الحرب العالمية الثانية وبروز هيئة الأمم المتحدة وإحكام النظام الجاهلي السيطرة على العالم بأنظمة الجنسية والورق النقدي والحدود المسيجة بين ما يُسمى دول العالم أصبح من الصعب إقامة مثل هذه الإدارات.

إلا أنه بالرغم من ذلك قامت العديد من إدارات التوحش خاصة في الأماكن التي تبتعد عن المركز وتتيح ظروفها الجغرافية والسكانية تسهيل ذلك.

طريق التمكين

في المبحث الثاني تحدث الكاتب عن طريق التمكين وعرض خلاله مراحل المجموعة الرئيسية: مرحلة [شوكة النكاية والإنهاك]، ثم مرحلة [إدارة التوحش]، ثم مرحلة [شوكة التمكين –قيام الدولة–].

وأعقبها بمراحل بقية الدول وهي:

مرحلة [شوكة النكاية والإنهاك]، ثم مرحلة [التمكين] الفتح وشوكة التمكين يأتيان من الخارج.

هذا مع ملاحظة أن من المحتمل أن تمر بعض الدول غير الرئيسية بنفس مراحل الدول الرئيسية تبعاً لتطورات الأحداث.

الدول المرشحة للتوحش

وقدم الدول المرشحة كمجموعة رئيسية التي ينبغي التركيز عليها من قبل المجاهدين حتى لا تتشتت القوة الضاربة لهم في دول لا مردود من وراء العمل المركز فيها، بالطبع هذا الترشيح المبدئي النظري يتيح لأهل كل بلد إمعان النظر واتخاذ القرار.

ومن ثم يمكن التركيز في النهاية على بلدين أو ثلاثة تم التحقق من استعداد أهلها للتحرك، هذا بالنسبة للعمل المركَّز ويقترح الكاتب هذه البلدان على أنها: الأردن وبلاد المغرب ونيجيريا وباكستان وبلاد الحرمين واليمن.

رؤية الكاتب للتوحش

الأمر باختصار في نظر الكاتب، مرحلة شوكة النكاية والإنهاك عن طريق مجموعات وخلايا منفصلة في كل مناطق العالم الإسلامي –الرئيسية وغير الرئيسية– حتى تحدث فوضى وتوحش متوقعة في مناطق عديدة بالدول الرئيسية المختارة طبقًا للدراسات.

بينما لن تحدث فوضى في مناطق باقي الدول لقوة الأنظمة فيها وقوة مركزيتها، ثم ترتقي مناطق الفوضى والتوحش إلى مرحلة إدارة التوحش، بينما تستمر باقي مناطق ودول العالم الإسلامي بجناحين جناح الدعم اللوجستي لمناطق التوحش المداراة بواسطتنا وجناح شوكة النكاية والإنهاك للأنظمة حتى يأتيها الفتح من الخارج (ويقصد بالدعم اللوجستي [المال]،[محطة انتقال أفراد]،[إيواء عناصر]، [الإعلام]... إلخ).

الأهداف الرئيسية

ولخص الكاتب الأهداف الرئيسية لمرحلة [شوكة النكاية والإنهاك] والأهداف الرئيسية لمرحلة [إدارة التوحش] وخطة العمل والتحرك مسلطا الضوء على الأهداف التي من الضروري التركيز عليها وأسباب ذلك. كما بسط الكاتب شرحًا خطة فك الاشتباك للخطة السابقة في نقاط محددة.

أهم القواعد والسياسات

في المبحث الثالث ركز الكاتب على أهم القواعد والسياسات التي تتيسر باتباعها خطة العمل وتتحقق أهداف مرحلة شوكة النكاية والإنهاك، بصفة عامة وأهداف مرحلة إدارة التوحش بصفة خاصة.

واستهل بحثه بفصل أول عنوانه: "إتقان فن الإدارة"، بينما تناول في الفصل الثاني من يقود ومن يدير ومن يعتمد القرارات الإدارية الأساسية، فليس كل قائد مدير وليس كل مدير قائد. ولكن الكاتب يسعى لأن يصبح كل قائد مدير وليس كل مدير قائد في العمل الإسلامي. وقد أسند شرحه بضرب أمثلة.

لتسهيل الأعمال

وفي الفصل الثالث، تحدث الكاتب عن اعتماد القواعد العسكرية المجربة؛ لتسهيل الأعمال العسكرية أين اعتمد على قاعدة [الجيوش النظامية إذا تمركزت فقدت السيطرة، وعلى العكس إذا انتشرت فقدت الفعالية].

وقواعد معدل العمليات: فهي إما تصاعدية أو بمعدل ثابت أو في صورة أمواج وأحياناً تكون مراحلنا فيها كل هذه المعدلات. ومن القواعد الهامة أيضا قاعدة

تصلح كاستراتيجية عامة وتصلح كذلك للتخطيط للعمليات الصغيرة. تقول: [اضرب بقوتك الضاربة وأقصى قوة لديك في أكثر نقاط العدو ضعفًا].

ومن القواعد الهامة أيضًا والتي كانت عماد الحروب في السابق والحاضر، ومازال علماء الاستراتيجيات والمؤرخون يتحدثون أن تركيز جماعات الجهاد عليها سيعجل بانهيار الأعداء كل الأعداء، هي أن أقرب وسيلة لهزيمة العدو الأقوى عسكريًا هي استنزافه عسكريًا واقتصاديًا –بالطبع اقتصاديًا عن طريق عمليات عسكرية في الأساس بجانب الأساليب الأخرى–، وأسند الكاتب طرحه بتقديم أهم المراجع التي ينصح بدراستها لفهم هذا الفصل.

اعتماد الشدة

في الفصل الرابع شرح الكاتب قضية اعتماد الشدة ذلك بإن دور الشدة والغلظة على الكافرين في المعارك القتالية والإعلامية لا يفهمه الكثيرون ممن لم يخوضوا حروباً في حياتهم، وأن مرحلة تدجين المسلمين التي مرت عليهم كان لها أثرها.

كيف نحقق الشوكة؟ وضرورة فهم قواعد اللعبة السياسية للمخالفين والمجاورين

وفي الفصل الخامس تحدث الكاتب بإسهاب عن طريقة تحقيق الشوكة، ليعقبها في الفصل السادس فهم قواعد اللعبة السياسية للمخالفين والمجاورين جيدا والتحرك في مواجهتها والتعامل معها بسياسة شرعية.

الاستقطاب

في الفصل السابع تحدث الكاتب عن الاستقطاب، عن المعركة الملتهبة عن الإعلام عن إتقان الإدارة عن رفع الحالة الإيمانية عن المخاطبة المباشرة عن العفو وعن التأليف بالمال. وقد فصل أهمية الاستقطاب بحسب مرحلة التوحش.

قواعد الالتحاق

في الفصل الثامن بسط الكاتب ما سماه قواعد الالتحاق، وهو ما يحصل عند تعثر منطقة من المناطق المدارة من إدارة التوحش أو عند الحاجة لضم وإلحاق منطقتين متجاورتين ببعضهما البعض أو أكثر من منطقتين.

أيُّ المنطقة تلتحق بالأخرى وتنزل إداراتها تحت إمرة الإدارة الأخرى؟ وهل الذي يحسم تلك الأمور عنصر السبق في الجهاد والعمل لدين الله أو عنصر التفوق المادي والأقدر على القيادة أو عناصر أخرى؟ وكيف نعالج البغي أو الحسد الذي قد يكون موجوداً في النفوس؟ موضحًا بأن معرفة قواعد الالتحاق وممارستها والتعود عليها يسهل الطريق للقيام بالخطوة الأولى في المرحلة التي تلي مرحلة [إدارة التوحش] وهي مرحلة [قيام الدولة].

حيث أن الخطوة الأولى في تلك المرحلة هي قيام قائد أو مجموعة بجمع شتات المجموعات والمناطق تحت راية واحدة لتتكون بهم شوكة التمكين، كذلك عند الانتقال من مرحلة [شوكة النكاية] إلى مرحلة [إدارة التوحش] يتطلب الأمر ممارسة قواعد الالتحاق حيث تلتحق أكثر من مجموعة من المجموعات الصغيرة التي تقوم بالنكاية ببعضها البعض لتكوين شوكة تقوم بإدارة التوحش الناتج عن النكاية.

إتقان الجانب الأمني وجانب التربية والتعليم

في الفصل التاسع، تحدث الكاتب عن إتقان الجانب الأمني وبث العيون واختراق الخصوم والمخالفين بجميع أصنافهم، في حين أسهب في الفصل العاشر في الحديث عن إتقان التربية والتعلم أثناء الحركة كما كان العصر الأول. وبسط أساليب التربية في ذلك.

عقبات

في المبحث الرابع عرض الكاتب أهم المشاكل والعوائق التي سيواجهها العاملون وسبل التعامل معها، ولخصها في مشكلة تناقص العناصر المؤمنة ومشكلة نقص الكوادر الإدارية، ومشكلة الولاء القديم لعناصر الإدارة (خاصة لاتجاهات إسلامية أخرى) ومشكلة الاختراق والجواسيس.

وكذا مشكلة التفلت أو الانقلاد من أفراد أو مجموعات أو مناطق بأكملها تغير ولاؤها كيف نتفهمها وكيف نتعامل معها. وأيضًا مشكلة التحمس الزائد عن الحد وملحقاتها (كالتعجل بالعمليات أو الحماقة أو الغلو).

الخاتمة

لنصل بعد هذا العرض المفصل إلى المبحث الخامس والذي احتوى الخاتمة، أين أجاب فيها الكاتب على سؤال: هل توجد حلول أخرى أيسر من ذلك الحل الصعب وأحقن للدماء؟ وفيها خاض الكاتب نقاشًا في المسألة وشبهاتها.

مقالات بعينها

وفيما يراه الكاتب أمرًا ضروريًا ومهمًا، أسند بحثه بمقالات بعينها؛ لتعميق الفهم، وتسهيل الاستيعاب لدراسته المعروضة.

وبهذا نكون قد انتهينا من تلخيص كتاب إدارة التوحش، فأرجو أن يكون مفيدًا لكل قارئ وباحث. وجزا الله الشيخ أبو بكر ناجي خير الجزاء عن بحثه القيّم ودراسته المتأنية.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

معركتنا مع اليهود

لسيد قطب

نثر سيد قطب على صفحات كتابه الجادّ بعنوان"معركتنا مع اليهود" مشاعره وأفكاره ومفاهيمه المستقاة من الإسلام العظيم بأسلوبه الراقي المعتاد، تكسوه الغيرة على الدين والحرص على مصلحة هذه الأمة، ليصبر أغوار مسألة المواجهة مع اليهود بشكل دقيق.

ولتصل الرسالة ببراعة قطبية، قسم كتابه لتسع فصول متباينة، كان أولها بعنوان"أيها الفدائيون.. امضوا في طريقكم" وكما يدل العنوان فقد تفاعل سيد قطب في هذا الفصل بقوة مع واقع الفدائيين في ذلك الوقت، فكانت كلماته سيل تحريض دافق، يحدوه تفسير آية (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا).

وبتشخيص ثاقب لواقع الفدائيين آنذاك بيّن خطر الارتباط بوزارات تفكر بعقلية المفاوضة والمحادثة والدبلوماسية، والاكتفاء بالمذكرات والاحتجاجات والمقاومة السلبية.

وزارات قامت على الوضع الإقطاعي، تكره للشعب أن يحمل السلاح، وتكره للشعب أن يتدرب على خوض معارك التحرير.

ولأن حركة الشعب إن سارت باتجاه الحرية ومكافحة العدوان الخارجي لن تكف حتى تحقق الحريات جميعا فإن هؤلاء الإقطاعيين يرتجفون من الشعب ومن حركات الشعب ومن تسلح الشعب ما يدفعهم لتطويق الفدائيين وتطويق كتائب التحرير.

ثم إن محاولة تطويق حركة الكفاح باسم التنظيم وإبعاد العناصر المشاغبة حركة مكشوفة لا تخفى أهدافها على بصيرة هذا الشعب هكذا رسم سيد قطب تصوره لتلك المرحلة الغابرة.

دور الإنجليز السمر!

وفي الفصل الثاني بعنوان :"ماذا صنعتم لأبطال فلسطين؟". تجلى بشكل مؤلم مدى بخس الحكومة لأبطال فلسطين، فلم تذكرهم قوائم الترقيات الطويلة العريضة لضباط الجيش ولا أرقام الميزانية الضخمة لوزارة الدفاع ولا الاعتمادات الإضافية بعد الميزانية الضخمة، ولا حتى خبرا صغيرا أو إشارة عابرة إلى الأبطال الذين جادوا بأرواحهم ثم لم يحصلوا على مجرد أثر أو خبر.

ما فسره سيد قطب بروح المندوب السامي الإنجليزي"سبنكس" التي تسير دولاب الحكومة. وأن الإنجليز البيض يوم غادروا الإدارة الحكومية في مصر لم يتركوا مكانهم خاليا بل خلفهم الإنجليز السمر الذين يقومون مقامهم ويغنون غناءهم ويتقنون مهنتهم ويحققون أهدافهم في وفاء كامل وفي أمانة وإخلاص.

لقد سلط سيد بقطب الضوء على وظيفة الإنجليز في قتل الروح المعنوية، وبذر بذور اليأس والضعف والقنوط في نفس هذه الأمة، والإيماء الدائم لهذا الشعب بأنه يستحيل أن يصنع شيئا لأنه غير قادر على شيء، ما يُخضعه لما يريده المستعمرون.

والأهم من ذلك بحسب الكتاب، هو قتل الروح الحربية، لأنهم يدركون جيدا أن يقظة هذه الروح هي الخطر الأكبر الذي يتوعدهم ويتهددهم.

لكنهم حسبوا ومكروا وخانتهم حساباتهم ومكرهم وبطلت مكيدة الاستعمار التي أحكمها ستين عاما، وانبعث المجاهدون من جديد، وظهر في ذلك الوقت الإخوان المسلمون يحملون الشعلة المقدسة وانطلقت بركات التطوع الفدائي، وظهرت الطاقة الكبرى التي تزلزل الاستعمار من أساسه.

وفي الفصل الثالث بعنوان ''سباق إلى التضحية والفداء'' صور سيد قطب بأسلوب بديع كيف يتزاحم الشباب على أبواب الأحزاب والهيئات كما يتدافع السيل وراء السدود، يريدون الانخراط في كتائب التحرير ليمزقوا كل المكائد التي حاكها الاستعمار في طريقه كي لا ينبض يوما بروح القتال.

ولكن المنافسات الحزبية التي كانت آفة الوطن، لم تظهر في هذا المشهد لأنها لم تكن سباقا إلى الحكم وسباقا إلى الغنم بل هي اليوم خير، لأنها لا تدور على المغانم ولكنها تدور على المغارم، ليست في سبيل الشيطان بل في سبيل الله.

ويصور سيد قطب قرب النصر حينما ننتصر على أنفسنا وعلى شهواتنا وعلى مطامعنا الغريبة في هذه الأرض، ومتى تطلعت أبصارنا إلى أهداف أعلى من منافع الأفراد ولذائذ الأفراد.

اليهود والعداوة مع الإسلام

أما الفصل الرابع فكان أصل الموضوع وقاعدة البناء بعنوان''معركتنا مع اليهود''. واستفتحه سيد قطب بآية عظيمة قال تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..) وكما قال سيد فإن الأمة المسلمة لا تزال تعاني من دسائس اليهود ومكرهم ورغم ذلك فإنها لا تنتفع مع الأسف بتلك التوجيهات القرآنية وبهذا الهدي الإلهي: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا

وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ، أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون).

وما زال اليهود بلؤمهم ومكرهم يضللون هذه الأمة عن دينها ويصرفونها عن قرآنها كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الوافية وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية،ثم إن كل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء اليهود سواء عرف أم لم يعرف أراد أم لم يرد.

وبعد عرض لتاريخ اليهود في المدينة المنورة أوضح قطب أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الدين بالسيف والرمح فحسب ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب إنما كانوا يحاربونها أولا في عقيدتها، بالدس والتشكيك ونثر الشبهات وتدبير المؤامرات.

وتناول سيد قطب مسألة الدس التي احترفها اليهود والتي كان منها دس عشرات الشخصيات على الأمة في صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوها ظاهرين.

ولن يجد المسلمون أفضل من القرآن في تفصيل حال اليهود، وشرح نفسياتهم وليس الأمر مصادفة فإن تاريخ أمة من الأمم لم يشهد ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة وجحود وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبياءهم وكفروا أشنع كفر واعتدوا أشنع الاعتداء وعصو أبشع معصية، لقد كان لهم في كل ميدان أفاعيل ليس مثلها أفاعيل.

واليوم ازدادت المعركة ضراوةً وسفورًا أو تركيزًا بعد أن جاء اليهود من كل فجّ وأعلنوا أنهم أقاموا دولة إسرائيل.

لكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم إلى زوال وأن ما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار. فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان.

ثم بعد هذا التشخيص الدقيق لمعركتنا مع اليهود يفصل سيد قطب في الفصل الخامس بعنوان "الإسلام نظام اجتماعي لا تعويذة" حقيقة أن الإسلام نظام اجتماعي قائم بكامله، ليس تعويذة سحرية تعلق على رأس الشرق الأوسط أو تحت إبطه فتذهب عنه الأرواح الشريرة وتطرد عنه الجن والمردة وتحفظه بسرها البالغ من المبادئ الهدامة.

بل إن الإسلام نظام اجتماعي ذو خصائص معينة يقوم على أسس معينة ويصوغ الحياة والمجتمع والقانون والعلاقات الدولية ومعه تلك الخصائص وهذه الأسس وعندئذ فقط يكون له مفعول ويقف في وجه الزحف الشيوعي.

ويلخص في ختام فصله إلى أن الإسلام الذي سيحقق التغيير ليس إسلام الرقى والتعاويذ ولكنه إسلام النظام والاعتزاز.

حقيقة الكتلة الإسلامية

ثم ينتقل بعد هذا في الفصل السادس لتناول "حقيقة الكتلة الإسلامية" ، مؤكدا للمرة الألف أن الإسلام لا يعرف تلك الأسطورة التي تجعل الدين شيئا والسياسة شيئا آخر، وهي أسطورة مستوردة من أوروبا.

ذلك أن الإسلام عقيدة ينبث منها نظام دولي، ولا يمكن التفرقة بين ما هو دين وما هو سياسة وما هو اجتماع، لا إسلام بلا شريعة إسلامية، وبلا نظام اجتماعي إسلامي وبلا علاقات دولية قائمة على أسس الإسلام، هذه بديهة بالقياس إلى الإسلام.

ثم إن الإسلام يميز الأمة المسلمة بخصائصها ويحرم عليها الاندماج في الأمم التي لا تدين بنظامها الاجتماعي وعقيدتها الإسلامية، وإن لم يحرم عليها أن تتعاون وإياها لتحقيق هدف إنساني عام.

كذلك تملك الأقليات المختلفة أن تعيش في ظلها آمنة مطمئنة. فالإسلام ينوط بالأمة المسلمة مهمة هائلة إنها مهمة الوصاية على البشرية. وكفاح الظلم في الأرض، ووسيلة الأمة المسلمة لأداء هذا الواجب الضخم أن تكون كتلة واحدة تدين لعقيدة واحدة وتحكم بشريعة واحدة وتقيم نظاما اجتماعيا واحدا. وتدفع البشرية كافة إلى هذا النظام لا أن تخضع هي لمستعمر أو تستجلب لها نظاما اجتماعيا من وراء الحدود.

وفي ختام فصله المهم يقول سيد قطب إن الكتلة الإسلامية لا تتحقق إلا أن تصبغ كل عمل لها وكل هدف صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة. فمن شاء أن يسالمنا على هذا الأساس فليسالم ومن شاء أن يخاصمنا على هذا الأساس فليخاصم والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم يأتي دور الفصل السابع بعنوان ”فلنعرف من نحن؟“ وفيه يقدم الإجابة الكافية عن هذا السؤال، وبعد عدة تساؤلات استدراجية، يخلص سيد قطب إلى أن لكل من المذاهب الاجتماعية خطوطها الرئيسية ولكل منها مقوماتها وخصائصها كذلك، ولهذه المقومات والخصائص أثرها في تحديد نوع الحكم وشكله في توزيع الثروة وفي علاقات الإنتاج وفي مناهج التربية والتعليم وفي عقلية التشريع ومصادر التشريع.

وإنه لمن العبث أن نحاول إعادة بناء وطن دون تحديد الخطوط الرئيسية لهذا البناء ودون أن نسأل أنفسنا عن نوع الوطن الذي نحاول بناءه. ونوع المجتمع الذي نحاول إنشاءه، ونوع العقلية التي نعدها للحياة في هذا المجتمع.

ثم يجيب سيد قطب عن التساؤلات التي قد تتراءى للقارئ بعد هذه الرحلة مع الواقع والمفاهيم الثابتة، في فصله الثامن ''أين الطريق؟''، أين يؤكد أن هذه الأمة لن تصل إلى شيء ذي قيمة إلا أن تربي أرواحها وعقولها وجسومها تربية سليمة، وأن يربى كل فرد منها في محضن هادئ ثابت ذي أهداف مرسومة، إلى أن يصبح كل فرد فيها وحدة سليمة قوية ذات عقيدة وذات طريقة وذات ضمير.

وأكد سيد قطب أنه مع الأيام فقد ثقته بالحركات الشعبية الصاخبة والضجيج الذي يثور فجأة ثم يتبدد ويذهب.

فرغم إيمان قطب بالشعب وبالشعب المصري خاصة إلا أن الظروف السيئة المحيطة بهذا الشعب لا تدع لخصائصه الطيبة أن تعمل وحدها، ذلك أن ألف داء وداء تنخر في تكوين هذا الشعب.

لهذا فالشعب بحاجة لرصيد ضخم من القوة لكي يكافح هذه الظروف ويظهر عليها. ولأنه بحاجة لقوة ليكافح ظروفه السيئة ثم ظروفه السيئة لا تسمح له بنيل هذه القوة، هنا يجيئ دور التربية الذاتية في محضن خاص يملك مقاومة المجتمع فالمجتمع عامل سيء في هذه الظروف.

ويتألق سيد قطب ببريق المعاني حين يقول: نحن بحاجة إلى زعماء بلا مجد وبلا شهرة وبلا بريق ، في حاجة إلى جنود مجهولين في حاجة إلى فدائيين حقيقيين لا يعنيهم أن تصفق لهم الجماهير، ولا يعنيهم أن تكون أسماؤهم على كل لسان وصورهم في كل مكان، إنما يعنيهم شيء واحد أن يقوموا بتربية هذا الشعب وإعداده إعدادا هادئًا ثابتًا مكينًا متينًا.

وإلى أن يوجد هؤلاء الزعماء وإلى أن يكثر المتخرجون من محاضن التطهير والتقويم، إلى أن يوجد هؤلاء وهؤلاء فنحن لا ندعو إلى الصمت والسكون والانتظار كلا إن عجلة الحوادث أسرع من الانتظار.

فليمضِ كلٌّ في طريقه وليتحرك هذا الشعب وليعمل رغم جميع الأخطار ورغم استغلال المهرجين والطبالين والزمارين والمستنفعين والمنتحلين لعواطفه.

والحقيقة الأكيدة التي على الشعب الثقة بها هي أن النصر الحقيقي لن يتم له إلا أن يتطهر ، وإلا أن تكون له قيادة روحية تحاول رفعه إليها، وتعمل على تربيته تربية كاملة، قيادة ذات هدف أبعد من استرضاء الجماهير ومن تملق الجماهير. هدف ثابت تتجه إليه في قوة وفي ثقة وفي يقين حتى لو انصرفت عنه الجماهير. وهذا هو الطريق.

إلى المتثاقلين عن الجهاد

ثم يختم قطب سفره الرصين الجادّ، بالفصل التاسع الذي يحمل عنوان"إلى المتثاقلين عن الجهاد؟" والذي استرسل فيه متحدثًا عن أهمية الجهاد كفريضةٍ على المسلمين، وعظم الوعيد للمتخلفين عن هذا الركب، حينما يكون فرض عين، مستدلا بقبسات من سيرة سيد الخلق ﷺ.

وبيّن أن النفير للجهاد في سبيل الله هو انطلاق من قيد الأرض وارتفاع على ثقلة اللحم والدم وتحقيق المعنى العلوي في الإنسان وتغليب لعنصر الشوق المجنّح في كيانه على عنصر القيد والضرورة، وتطلعٌ إلى الخلود الممتد وخلاصٌ من الفناء المحدود.

وفي معترك الحياة ومصطرع الأحداث يستخلص قطب الحكمة التي يجب أن نقف أمامها طويلا وندركها ونتدبرها ونتفاعل مع الحياة على ضوئها، حكمة التربية بالجهاد في سبيل الله، فالله لم يدع المسلمين للمشاعر وحدها تربيهم وتنضج

شخصيتهم المسلمة بل أخذهم بالتجارب الواقعية والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي وكل ذلك لحكمة يعلمها وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير وهذه هي التربية الحقيقية.

وبالتعمق والتدبر في معاني الآيات العظيمة عن الجهاد سلّط سيد قطب الضوء على النص الرهيب الذي يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله وعن حقيقة البيعة التي أعطوها بإسلامهم طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفّى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف "المؤمن" وتتمثل فيه حقيقة الإيمان وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق.

والمتخلفون عن الجهاد يخلعون هذه البيعة من أعناقهم لأنهم ناكلون متثاقلون لا يؤدون حق الله عليهم ولا حق الإسلام ولا حق المجتمع . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.

وبهذه الكلمات العميقة يختم سيد قطب سفره حينما يقول: إنهما طبيعتان ، طبيعة النفاق والضعف والاستجداء، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء، وإنهما خطتان، خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون وخطة الاستقامة والبذل والكرامة... ولا شك أن طلاب السلامة لا يحسون بالعار، فالسلامة هدف الراضين بالدون.

كان هذا ملخص كتاب سيد قطب"معركتنا مع اليهود" والذي لا يفوت مسابقًا لبيبًا مطالعته واستخلاص فوائده، ففيها التشخيص والحل وفيها العبرة والأدب.

رحم الله سيد قطب وجزاه عن الإسلام وأمته كل خير.

أمريكا بعيون قطبية

لسيد قطب

بأسلوبه الماتع الأنيق، سطّر سيد قطب أسفارا كثيرة في شتى فنون العلم والحياة، ولا شك أن من تبحر في ذخائره لمح تلك البصيرة التي تمتع بها الكاتب الفذّ في تناول المواضيع الأكثر أهمية وحساسية في عصره بل والتي لا زالت أهميتها تمتد على طول خط الزمن إلى يومنا هذا.

واليوم أسلّط الضوء على موضوع احتل قسما كبيرا من أفكار وكتابات سيد، كونه عايشه بنفسه وعبّر عنه بروحه المؤمنة المجاهدة، إنه الموضوع الذي نثر فيه آراءه وتجاربه وخبراته خلال رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية والذي تمايزت عبقرية عرضه له بين مختلف ألوان عطاءاته سواء كانت في تفسيره للقرآن الكريم أو في الكتب أو المجلات أو المقالات أو في قصائده وفي رسائله الخاصة لأصدقائه ومعارفه.

لقد نجح سيد في إخضاع حروفه لسبر أغوار هذه المسألة فخرج بخلاصات أجمع على صحتها كل باحث عن الحقيقة عرف أمريكا عن كثب.

ولعل أبرز ما كتبه سيد في هذا الصدد ، ثلاث مقالات نشرها في مجلة ''الرسالة'' وتوجها بعنوان ''أمريكا التي رأيت في ميزان القيم الإنسانية'' وهي ليست الوحيدة بل تواترت الشهادات التي تتحدث عن كتاب قيّم سوّد في صفحاته سيد كل ما يجول بخاطره حول أمريكا وحقيقتها عنوانه : ''أمريكا التي رأيت''، ولكن الكتاب فُقد بعد حملة اعتقالات كانت تطال الناشطين في الدعوة في تلك الحقبة والتي

طالت سيد قطب أيضا ، ما دفعه لإخفاء نسخته عند أحد أصدقائه والذي اضطر بدوره إلى حرقها خشية أن يسجن.

وتتميز كتابات سيد قطب حول أمريكا بحرصه الشديد على دراسة المجتمع الأمريكي والظاهرة الأمريكية دراسة متخصصة تعتمد الفحص الشامل والنظرة المتعمقة والتحليل الصائب والتدقيق المتأني من رجل عايش القوم ونزل بديارهم لا يشغل باله إلا هذه المهمّة.

لاشك أن نظرة سيد قطب لأمريكا تتفق مع نظرة شريحة كبيرة ممن عرف أمريكا عن كثب، ولكن في المقابل هناك من لا يزال منبهرا بهذه الدولة المهيمنة على النظام العالمي منذ عقود من الزمن.

وهذا أمر طبيعي إذ أنه يعكس التقييم الخاص للشخص بحسب توجهه واهتماماته، فبعض المخدوعين بقوة أمريكا المادية والمهزومين نفسيا أمام تقدمها العسكري ، والمنبهرين بسياساتها وسيطراتها وتفوقها، والمتأثرين بمنهاج حياة شعبها يروّجون للثقافة الأمريكية وينشرون دعايتها وزخارفها وأباطيلها فلا يعكسون –للأسف– إلا صورة تبعية سلبيّة خاضعة لأكثر قوة هيمنت على الأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين وأخضعت حكوماتها لسياساتها ومصالحها فكان استعباد من نوع جديد تمكنت من خلاله السيطرة على المنطقة برمتها واحتواءها في أغلب المجالات.

حضارة مادّية وضعف روحي وإيماني

نعم تتميز أمريكا بتلك المساحات الشاسعة من الأرض بين الأطلنطي والباسيفيكي. وبتلك الموارد التي لا تنضب من المواد والخامات، ومن القوى والرجال. وتلك المصانع الضخمة التي لم تعرف لها الحضارة نظيراً. ثم ذلك النتاج الهائل الذي يعيا به العدو الإحصاء، وتلك المعاهد والمعامل والمتاحف المبثوثة في كل

مكان. وعبقرية الإدارة والتنظيم التي تثير العجب والإعجاب. وذلك الرخاء السابغ كأحلام الجنة الموعودة. وذلك الجمال الساحر في الطبيعة والوجود والأجسام. فضلا عن تلك اللذائذ الحرة المطلقة من كل قيد أو عرف. وتلك الأحلام المجسمة في حيّز من الزمان والمكان.

ولكنها رغم كل هذا الضخّ، لم تزل أمريكا فاشلة في تحقيق رصيد محترم في ميزان القيم الإنسانية ولم تضف إلى رصيد البشرية إلا مزيدا من الحروب والدمار والعنصرية والعدوان.

سنجد في كتابات سيد المختلفة الاستشهاد بالواقع الأمريكي على الجاهلية وفسادها وانحلالها وإباحيتها.. وتبيان إعجاز القرآن في توصيف الواقع المعاصر وخاصة تلك السنن البشرية التي تتكرر مع الظالمين.

قال سيد في تفسير قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيئ) باعتبار أمريكا نموذجا له: لقد كنت في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه : (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية.. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب، لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك.

أما من أمثلة الواقع الأمريكي ما ذكره سيد عن الروابط الاجتماعية والفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية التي قام بتقييمها في المجتمع الأمريكي، وحسب دراسته التي طالت نماذج لأفراد وشرائح بشرية مختلفة، قال سيد:

إن الحيوية المادية عند الأمريكي مقدمة والضعف أيا كانت أسبابه جريمة ... جريمة لا يغتفرها شيء، ولا تستحق عطفا ولا عونا... وحكاية المبادئ والحقوق، خرافة

في ضمير الأمريكي لا يتذوق لها طعما... كن قويا ولك كل شيء، أو كن ضعيفا فلا يسعفك مبدأ ولا يكون لك مكان في مجال الحياة الفسيح، أما الذي يموت فيرتكب بالطبع جريمة الموت! ويفقد كل حق له في الاهتمام والاحترام! أليس إنه قد مات.

لقد رأى سيد الأمريكيين فوصفهم قائلا:

ولم ألمح في تلك المساحة الشاسعة من المكان – إلا في مرات نادرة – وجها إنسانيا يعبر عن معنى الإنسان، أو نظرة إنسانية تطل منها معاني الإنسانية، ولكني وجدت القطيع في كل مكان.

كما وثّق سيد اضطراب النفس عند الأمريكيين وتسابقهم في صراع البقاء وتميّزهم بشهوة الحرب فهم قوم جُبلوا على فكرة الحرب والصراع، إنها تجري في دمائهم وبارزة في سلوكهم، وهذا ما أكّده التاريخ مرارا، منذ ظهور هذه البلاد على خريطة العالم، فقد تولدت فكرة أمريكا من فكرة الاستعمار الذي بدأ بالأفواج الأوروبية الأولى التي وصلت إلى العالم الجديد ثم بدأت تقتتل فيما بينهم لينتقلوا بعد ذلك إلى طور قتال سكان الأرض الأصليين "الهنود الحمر"، والتي لا تزال رحى إبادتهم تدور إلى الآن.

وقاتل العنصر الأنجلوسكسوني العنصر اللاتيني هناك، وطرده إلى الجنوب في أمريكا الوسطى والجنوبية ثم حارب المتأمركون أمهم الأولى إنجلترا في حرب التدمير بقيادة جورج واشنطن حتى استقلوا عن التاج البريطاني. ولا زال الواقع ذاته إلى يومنا هذا، فما من حرب تقوم إلا ويد أمريكا غارقة في الدماء والدمار والنهب والاحتلال!

في أمريكا عرف العالم العنصرية والاستعباد في أبشع وأقبح صور له، هناك سيق الزنوج مكبلين بالسلاسل ليخدموا ''الرجل الأبيض'' المتعجرف! وليذوقوا مصير الموت أو الإذلال.

لقد كشف سيد تلك البدائية في النظرة للدين والجنس والرياضة والألعاب والأمزجة والأذواق. إنها بدائية طالت جميع المجالات بدرجات مختلفة. يقول سيد:

وقضيت عاما في تلك ''الورشة الضخمة التي يسمونها ''العالم الجديد'' وتنقلت من نيويورك إلى واشنطن إلى دنفر إلى جريلي.. '' وإنه ليبدو أن العبقرية الأمريكية كلها قد تجمعت وتبلورت في حقل العمل والإنتاج، بحيث لم تبق فيها بقية تنتج شيئاً في حقل القيم الإنسانية الأخرى. ولقد بلغت في ذلك الحقل ما لم تبلغه أمة، وجاءت فيه بالمعجزات التي أحالت الحياة الواقعية إلى مستوى فوق التصور ووراء التصديق لمن لم يشهدها عيانا.

ويتابع قائلًا:

ولكني (الإنسان) لم يحفظ توازنه أمام الآلة، حتى ليكاد هو ذاته يستحيل آله؛ ولم يستطع أن يحمل عبء العمل المنهك ثم يمضي قدماً في طريق الإنسانية، عندئذ أطلق للحيوان الكامن العنان؛ ضعفاً عن أن يحمل عبء العمل وعبء (الإنسان)!

وهذا ما جعل شعب أمريكا يتميز بظاهرة منفردة، حيث بلغ في عالم العلم والعمل، قمة النمو والارتقاء، بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى؛ بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك!

وهذه البدائية طالت حتى الألعاب الأمريكية، حيث يقول:

يبدو الأمريكي بدائيا في الإعجاب بالقوى العضلية، والقوى المادية بوجه عام، بقدر ما يستهين بالمثل والمبادئ والأخلاق، في حياته الفردية، وفي حياته العائلية، وفي

حياته الاجتماعية – فيما عدا دائرة العمل بأنواعه، وعلاقات الاقتصاد والمال – ومنظر الجماهير وهي تتبع مباريات كرة القدم، على الطريقة الأمريكية الخشنة التي ليس لها من اسمها (كرة القدم) أي نصيب، إذ أن (القدم) لا تشترك في اللعب، إنما يحاول لاعب أن يخطف الكرة بين يديه، ويجري بها ليقذف بها إلى الهدف، بينما يحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة، بما في ذلك: الضرب في البطن، وتهشيم الأذرع والسيقان، بكل عنف وكل شراسة. .

ويصف قطب تلك الجماهير قائلًا:

منظر الجماهير وهي تتبع هذه اللعبة، أو تشاهد حفلات الملاكمة والمصارعة الوهمية الدامية. . منظرها في هياجها الحيواني، المنبعث من إعجابها بالعنف القاسي، وعدم التفاتها إلى قواعد اللعب وأصوله، بقدر ما هي مأخوذة بالدم السائل والأوصال المهشمة، وصراخها هاتفة: كل يشجع فريقه: حطّم رأسه. دقّ عنقه. هشّم أضلاعه. اعجنه عجنًا.. هذا النظر لا يدع مجالاً للشك في بدائية الشعور التي تفتن بالقوة العضلية وتهواها.

وتابع:

وبمثل هذه الروح يتابع الجمهور الأمريكي صراع الجماعات والطوائف، وصراع الأمم والشعوب. ولست أدري كيف راجت في العالم والطوائف، وصراع الأمم والشعوب. ولست أدري كيف راجت في العالم – وبخاصة في الشرق – تلك الخرافة العجيبة. خرافة أن الشعب الأمريكي شعب محب للسلام!

وتحدّث عن الكنائس والدين النصراني هناك قائلا:

في تلك الأرض، الكنائس تشيّد بكثرة ويرتادها الأمريكيون في ليلات الأحد وأيامه، وفي الأعياد العامة وأعياد القديسين والمحليين وفي ذات الوقت ليس هناك من هو

أبعد من الأمريكي عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته، وليس أبعد من الدين عند تفكير الأمريكي وشعوره وسلوكه. والكنيسة الأمريكية في الواقع مكان لكل شيء إلا العبادة، يجتمع فيها الرواد للتسلية والأنس واللقاء وتمضية الأوقات وهو شعور يتقاسمه الزوار وسدنة الكنيسة ورعاتها!

وكيف أنّ الجنس والشذوذ منتشر، فقال:

ويكفي تعداد الفضائح الجنسية التي طات القسيسين والرهبان وطالت أسماء لامعة في المجتمع الأمريكي لندرك مدى هوان العقيدة في قلوبهم. أما شبابهم فيعيش في دوامة من المغريات تتجاذبه حتى يبقى أسير شهواته فظهر الشذوذ والتخبط اللامحدود وتفشت الأمراض الجنسية والمشاكل النفسية وإدمان الخمر والمخدرات وازدياد معدلات الطلاق والجريمة والاغتصاب، وارتفعت نسب الانتحار.

ووصل إلى حقيقة أمريكا عبر القول:

نعم هذه حقيقة أميركا.. ذلك العالم المترامي الأطراف الذي يشغل من أذهان الناس وتصوراتهم، أكثر مما تشغل من الأرض رقعته الفسيحة، وترف عليه أخيلتهم وأحلامهم بالأوهام والأعاجيب، وتهوى إليه الأفئدة من كل فج، شتى الأجناس والألوان، شتى المسالك والغايات، شتى المذاهب والأهواء.

لقد سجل سيد بدائية القوم حتى في الفنّ وسمات السينما الأمريكية التي تغلب عليها الانفعالات والجريمة البوليسية وأفلام رعاة البقر، والتي يظهر فيها الرجل الأبيض السيد دومًا والبطل دائمًا والمنتصر أولًا وآخرًا!

ماضيهم وحاضرهم يفسّر لنا

ولكن التفسير المنطقي لهذه الظاهرة نجده في ماضي هذا الشعب وحاضره، وفي الأسباب التي جمعت فيه بين قمة الحضارة وسفح البدائية:

ففي أمريكا ولد الإنسان على مولد العلم، فآمن به وحده، بل آمن بنوع منه خاص، هو العلم التطبيقي؛ الذي كان خير عون له في الجهد والتنظيم والإنتاج كما لا ننسى الحالة النفسية التي وفد بها الأمريكي إلى هذه الأرض فوجاً بعد فوج، وجيلاً بعد جيل، فهي مزيج من السخط على الحياة في العالم القديم، والرغبة في تحرير من قيوده وتقاليده، وكذلك الحالة الاجتماعية والفكرية لغالبية هذه الأفواج الأولى التي تألفت منها نواة هذا الشعب الجديد. فهذه الأفواج هي مجموعات من المغامرين، ومجموعات من المجرمين؛ فالمغامرين جاءوا طلاب ثراء ومتاع ومغامرات؛ والمجرمون جيء بهم من بلاد الإمبراطورية الإنجليزية لتشغيلهم في البناء والإنتاج.

ويبدو أن القيم الروحية والإيمان كان ما لم تهتم به تلك الحضارة المادية:

فحين تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين؛ والإيمان بالقيم الروحية جميعاً؛ لا يبقى هنالك متصرف لنشاطها إلا في العلم التطبيقي والعمل، وإلا في لذة الحس والمتاع. وهذا هو الذي انتهت إليه أمريكا بعد أربعمائة عام.

ويقول سيد:

كل شيء في أمريكا لا يدل على أعصاب مستريحة بالرغم من كل وسائل الحياة المريحة، وكل ضماناتها المطمئنة وكل يسر وسهولة في إنفاق الطاقات الفائضة.. في كل مكان ضحكات، وفي كل محلة مرح وفي كل زاوية أحضان وقبلات ولكنك لا تلمح في وجه واحد معنى الرضا ولا تحس في قلب واحد روح الاطمئنان.

أمريكا تقدم نفسها للعالم أنها على رأس القمة في نموذج الفضائل والمزايا المادية والأخلاقية والإنسانية بينما هي تخدعه وتخادعه، ولا يستجيب لها إلا المنخدعون، ولهذا تجند لداعايتها وتزويرها وخداعها الآلة الإعلامية الضخمة بأخطبوط من المؤسسات الإعلامية والقنوات وشركات صناعة الأفلام التي لديها تمويل فيّاض من الأموال لأجل تقديم الصورة المفبركة والمضللة عن الواقع الأمريكي، أضف لذلك جيشا من العملاء في مختلف بلدان العالم وظيفتهم إخضاع النفوس لهيمنة أمريكا وتقبلها واقعا لا فرار منه.

إن هذه المشاهدات العميقة لواقع الأمريكيين جعلت سيد يخلص إلى أن أمريكا تعيش عقوبة الفطرة الربانية، التي حقّت عليها بعد أن استكبرت في الأرض بغير حق وبدت الآن في طريقها إلى النهاية كما آل مآل من سبقها من دول الاستكبار والطغيان.

يقظتنا نحن من تحت قبضتهم

إن كشف اللثام عن الوجه القبيح للغطرسة الأمريكية وتسليط الضوء على دناءة المبادئ التي تتخبط في وحلها، لابد أن يوقظ الضمير في نفوس المسلمين، كي يوقفوا ظاهرة الإعجاب والقداسة لأولئك المستعمرين القذرين، الذين يحتقروننا ويهينون كرامتنا، وندرك مدى الكيد الذي يكيده لنا ذلك الأمريكي الذي يستغلنا ويستغل أوطاننا استغلالا شنيعاً، فإننا بتمجيدنا للأوربي والأمريكي إنما نمجد مثالاً مشوهاً للإنسان، ونقيم تمثالاً للجشع والطمع والسلب والنهب والاحتيال. ثم نضع تحت أقدامه أكاليل المدح والثناء!

وأُطلق العنان لعبارات سيد قطب تلخص الخاتمة حين يقول:

كل رجل غمس قلمه ليمجد فرنسا أو يمجد إنجلترا أو يمجد أمريكا. . هو رجل منخوب الروح، مستعمر القلب، لا يؤتمن على النهضة القومية، ولا يجوز أن يكون له مكان في حياة هذه البلاد بعد نهضتها.

إنني لا أكاد أتصور أن هناك إنسانا له مشاعر الإنسان يرى (الرجل الأبيض) يدوس بأقدامه على أعناقنا في كل مكان ثم يجد نفسه قادراً على تمجيد هذا الرجل، أو حتى مصادقته إنني أشك في آدمية هؤلاء الكتاب، وهؤلاء الوزراء، وهؤلاء الأساتذة. نعم أشك في آدميتهم لأن أول مميزات الإنسان أن يحس بكرامة الإنسان... أفهم أن تكون هناك ظروف اضطرارية تلجئنا إلى تبادل التمثيل السياسي والقنصلي، وإلى المبادلات التجارية والصلات الاقتصادية مع هؤلاء المستعمرين القذرين.. أما أن يتبادل العواطف والمشاعر، وأما أن نتحدث عن المآثر والمفاخر وأما أن نفتح قلوبنا وصدورنا.. فدون هذا ويعجز خيالي عن تصور المهانة، وتصور المذلة، وتصور المسخ الشعوري الذي يصيب الفطرة البشرية، فيهوي بها إلى ذلك الدرك السحيق من الهوان... من الذي لا يحتقر أمريكا ويحقر معها آدمية الأمريكان وهو يجد المعدّات الأمريكية والدولارات الأمريكية تشد أزر الاستعمار الأوربي في كل مكان. . لقاء مساومات اقتصادية أو استراتيجية أو عسكرية؟

من الذي يملك أن يقف على الحياد في معركة الحرية بين الاستعمار الغربي وبين البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها ثم لا يكتفي بموقف الحياد بل يمد يده بالمصافحة والمحالفة لهذا الاستعمار القذر، الذي تلعنه الأرض والسماء؟ إن الاستعمار لا يغلبنا اليوم بالحديد والنار. ولكنه يغلبنا قبل كل شيء بالرجال الذين استعمرت أرواحهم وأفكارهم، يغلبنا بهذا السوس الذي تركه الاستعمار في وزارة المعارف، وفي الصحف، والكتب؛ يغلبنا بهذه الأقلام التي تغمس في مداد الذلّ والهوان الروحي لتكتب عن أمجاد فرنسا، وأمجاد بريطانيا، وأمجاد أمريكا.

أمّا عن طريقة التغلّب على هذا الاستعمار فقال:

ولن نستطيع التغلب على هذا الاستعمار، إلا إذا حطمناه في مشاعرنا، وحطمنا معه الأجهزة التي تستحق إيماننا بأنفسنا. هذه الأجهزة الممثلة في وزارة المعارف ومعاهد التربية، والأفلام الخائنة الممسوخة التي سبحت يوما وما تزال تسبح بحمد فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا.

صدق سيد قطب، فإن أمريكا نموذج مجسد للمادية والجاهلية والكفر والانحلال، ولا يمكن أن تجلب خيرا لبلاد الإسلام، ولا يدرك عمق هذه المعاني إلا من عايشها في قلب حضارتها الهشّة المنهارة.

وإن كثيرا من الناس ما حملوا لواء الدفاع عن الإسلام وما آمنوا حق الإيمان أن دين الله هو الحق في هذه الأرض، إلا بعد أن وطأت أقدامهم أرض الصلف والكبر والجهالة والكفر الأمريكية ليشهدوا بأعينهم تلك المواجهة التي تستلزم من كل مسلم أن يصبح صاحب رسالة وجندي دعوة، ورجل فكرة ملتزما بالإسلام داعية إليه متحركا به في كل مكان وحين، وعندها فقط سنبلغ مراتب الإنسانية السامقة وتسجّل حضارتنا مرة ثانية رقمها الأسبق في سجل المتفوقين.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كتاب المسلمون والحضارة الغربية

لسفر الحوالي

ماذا في كتاب المسلمون والحضارة الغربية للشيخ سفر الحوالي؟ – الجزء الأول،

في أكثر من ثلاثة آلاف وخمسين صفحة، سافر بنا الشيخ سفر الحوالي في رحلة زاخرة بالمفاهيم والمعرفة ضخّ فيها نتاج تحصيله العلمي وقناعاته الشخصية بغزارة التلقي وسعة الإلمام الملفتة، ليخطّ كتابه ”المسلمون والحضارة الغربية“ الذي أصبح أحد أبرز مؤلفاته، كلّفه حريته وحرية أولاده، ذلك أنه السفر الذي صَدع فيه ولأول مرة برأيه في حكومة آل سعود. ووجّه فيه النقد اللاذع والنصيحة المباشرة لسلطاتٍ حاصرته حصار المجرم وأودعته سجونها ونزعت عنه كل حق في التعبير أو التحرك وباتت تلوح بحكم إعدامه.

رسالة الكتاب

اختصر الشيخ سفر الحوالي رسالة الكتاب في كونها رؤية جديدة للعالم أو نظّارة جديدة ننظر بها إلى أنفسنا وإلى الحضارة الندّ – أي الحضارة الغربية —وهي ثمرةُ تفكيرٍ طويل وتأمّلٍ عميق ودراساتٍ متأنية في التاريخ الحضاري العالمي، مع تدبّرٍ وقراءةٍ طويلةٍ في الفكر الغربي وفي الأديان، وفي كتاب الله، ونظرٍ في سيرة نبيه المختلفة، استمرت سنواتٍ طويلة بل عقودًا.

وركّز في مقدمته على تبيان حقيقة الغرب الذي وإن أظهر تارّةً الوجه المنتصر في النظم الحياتية والسياسية واحترام الشعوب ونصرة المظلوم إلا أنه في ذات الوقت كشف عن عداوته المتأصّلة للإسلام في وقائع محسوسة دفعت الشيخ للكتابة عنها. كان على رأسها الانحياز الدائم للصهاينة ومحاولات وأد أي نموذجٍ ناجح عند المسلمين حيث اعتبر الشيخ ترتيب الانقلاب بتركيا، وتقويض النمور الآسيوية مثالين على ذلك. إضافة إلى ما وصفه بإدخال المسلمين في نفق محاربة البعبع المفتعل "الإرهاب" الذي ضخّموه حتى أنسونا غيره على حد تعبير الشيخ سفر الحوالي.

ولم يسلّط الشيخ الضوء في هذه المقدمة على حرب الغرب للإسلام فحسب وإنما أيضًا على تآمر حكومات العرب التي ساندت هذا الغرب في حربه وسهّلت له المهمة بدرجة الفساد التي امتازت بها.

انتقادات جريئة

لقد حملت هذه المقدمة التي هي مدخل الكتاب وقلبه، انتقاداتٍ جريئةً لحكومة آل سعود، كنقده لتخصيصها 65 مليار دولار على افتتاح دورٍ للسينما في وقتٍ يرى فيه الشيخ الحاجة لهذه الأموال في مواطنَ أخرى!

كذلك كان تأكيده على أنّ الهجوم على الصحوة في بلاد الحرمين ليس العلمانية فقط، وإنما هو انتقالٌ من العلمانية اللادينية إلى العلمانية المحاربة للدين، موضحا أن العلمانية اللادينية هي ألا يتدخل أهل العلم في الشؤون السياسية، ولا ينظر القضاة في كثير من القضايا، ولكنهم في بلاد الحرمين انتقلوا اليوم إلى الهجوم المباشر على قطعيات الاعتقاد وثوابت المجتمع بحسب وصف الشيخ.

ظلم وتناقض

المقدمة ركّزت أيضًا على تبيان ظلم الإدارة الأمريكية داخل أمريكا وخارجها وحملت جملة أمثلة على تناقضات سياساتها وعدوانها وأيضا هزائمها في العالم الإسلامي رغم كل الكيد الذي تكيده للمسلمين.

واستغرق الشيخ صفحات طويلة يكشف فيها تناقضات الغرب وسقطاتهم وشدة التباين بين أفعالهم وأقوالهم. مقدّمًا العزاء لمن لا زال مخدوعا بحضارة منحدرة، أو يرجو الخير في أوليائها ومفكّريها. ضاربًا المثل القدوة في حضارة الإسلام ومشيّدًا بمواقف ثلاثة أئمة من أئمتها، هم الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعًا.

ونبّه الشيخ إلى أن الواجب في هذه المرحلة هو بيان الحق للصحوة المباركة الصاعدة، ورسم الطريق القويم لها، وأكّد أنه بعد استقرائه التاريخ واستشرافه المستقبل ثبت لديه أن المسلمين أفاقوا من غفلتهم ومستعدون للمواجهة، ومن الطبيعي جدا أن يتخبّط المستيقظون ويختلفوا، وربما استمر ذلك طويلاً.

الحضارة الغربية

وقد وصف الشيخ الحضارة الغربية بـ "هُبَل" الذي يليه ثلة من الأصنام كالديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام العالمي وتحرير المرأة والعولمة، والتجارة الحرة والمساواة.. إلخ.

وهي الحضارة التي اختفت في ظلّها الأخلاق والفضيلة والقيم لتحل محلها الواجبات الوطنية أو النفعية بأي اسم، ووقع أصحابها في تناقضٍ شائن. فاللواط مثلا عندهم مسألة شخصية يحق للإنسان أن يمارسها أو يدعها، أما قطع إشارة المرور فهو كارثة تستوجب إحالة فاعلها إلى المحكمة!

وبالاستدلال بأمثلة من الواقع وبتصريحات الساسة الغربيين وضّح الشيخ سفر أن الغرب بين نوعين من القوة: القوة الصلبة أو الخشنة، والقوة الناعمة التي تسهّلها وسائل الاتصال الحديثة.

ونبّه الشيخ أن تبيانه لعيوب الحضارة الغربية لا يقصد منه معاملتها بالمثل أو الحط من قيمتها كما حطت هي من قيمة الحضارة الإسلامية، وإنما يقصد به العدل معها لتتوازن الصورة.

الليبراليون وأذى السلطات

النقد اللاذع من الشيخ سفر وُجِّه أيضًا إلى الليبراليين مؤكدًا أن سباحتهم عكس التيار غير مُجدية، وأن تهديداتهم غير مؤثّرة، وقال:

"قد قرأت قول من قال: مرحبا بالديمقراطية ولو جاءتنا على ظهر دبابة أمريكية، وأنا أقول: مرحبا بإقامة الدين ولو أقيم على رقابنا ودمائنا وأشلائنا!".

ثم لم يخفي الشيخ ما تعرّض له من مضايقات وأذى من نظام آل سعود، وقد أكد قطع الراتب والتقاعد عنه ومنعه من التبرع لفلسطين وغيرها، مع توضيح لموقفه بأنّه ليس معارضًا، ولكنّه ناصح على منهج الأنبياء الكرام، طامعًا أن يهدي الله كل من ضلّ من الحكام أو الكتاب، بحسب تعبيره.

محاربة الإسلام

وبعبارة جامعة قال الشيخ إن النهج الأمريكي في محاربة الإسلام لا يحارب التدين في الجملة، ولكن يبقي نوعًا منه كشعارات باهتة، ومسألة شخصية، بحيث لا يتعارض مع المصالح الأمريكية، وهو لا يعارض وجود الأحزاب الإسلامية في مصر والأردن والكويت وليبيا وتونس، إذ هي حقيقة شعبية واقعة، ولكنّه يرى ضرورة التأثير على سلوكها وضرورة دخولها في اللعبة السياسية بحكم الديمقراطية.

والغرب بحسب الشيخ احتل أكثر العالم ونهب ثرواته بالاستعمار قديمًا، ثم باسم الشركات العابرة للحدود وبالاستثمار حديثًا، واكتشف كثيرا من المجاهل لكي يحصل على الذهب والنفط، وأصبح مجتمعًا غشّاشًا لا بالغش البدائي الساذج المعروف، بل بالغش المتحضر المتطور والأخلاق التجارية والابتسامات الصفراء، وهكذا غيّر الغرب جلده، وخرج مُكرهًا من النافذة، ليعود مُرحّبًا به من الباب، وجاء بشعاراته البرّاقة عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وتحرير المرأة ومعاداة الديكتاتورية...الخ.

خلاصات مراكز البحث الغربية

ومن خلال اطّلاعه العميق الواضح بخلاصات مراكز البحث الغربية ومؤسسة راند ومستدلًا باقتباسات من هذه البحوث استخرج الشيخ الدور الذي لعبته هذه المراكز في صياغة سياسات الإدارات الغربية، والتي تركّز على حماية أمن حلفاء أمريكا على رأسهم إسرائيل ونشر القيم الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكية. ومحاربة ما يسمى الإرهاب والوصول الآمن للنفط ودعم الأنظمة العربية المستقرة ولو كانت ديكتاتورية وأيضا التمييز بين الأفراد والحركات المعادية للقيم الأمريكية وبين من يقبلوها.

موضّحا القاعدة التي تعتمدها مراكز البحث المختلفة بأن تتعامل السياسة الأمريكية مع ما هو متاح لا ما هو مرجو. وأن الغرب عمومًا ينطلق من روح صليبية، ومن عقدة فيينا التاريخية، لكنه تستّر بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة وما أشبه ذلك من الشعارات، وثقافته ثقافة عدائية – إلا القليل – وتعصّبه جلي، وحلّه للقضية الفلسطينية إنما يقوم على محاباة اليهود، وإطلاق يدهم لأخذ ما يريدون، وردّ ما يريدون من القرارات الدولية ومناصرة ظلمهم بالسلاح وبالفيتو.

تساؤل مشروع

وتساءل الشيخ بعد هذا موجهًا نقدًا آخر غير مباشر لحاكم السعودية وابنه قائلا:

أليس المستغفل هو من يصدق الأمريكان ويعطيهم التريليونات في شكل ودائع أو سندات أو استثمارات وغير ذلك، ويستشيرهم في حل المشاكل الإقليمية أو المحلية؟

ولكن الشيخ سفر لا يستغرب ممن أدمن قراءة النظريات والفلسفات الغربية، معرضًا عن الكتاب والسنة وسير السلف أن يكون فكره غربيًا، وأن يدعونا للدخول في جحر الضب!

قراءة في الحضارة

بسط الشيخ بعد مقدمته، تعريفا للحضارة وكيفية سيرها وأجاب على سؤال: متى عرف الناس الحضارة؟ كما تناول أصل الحضارة البشرية ومهد الحضارة العالمية ومهد الحضارة الغربية حيث عرج بالحديث عن الحرب الصليبية الثانية ليصل إلى تفصيل جوابٍ متأنٍ لسؤالٍ يرد على كل مسلم وهو "هل يشن الغرب علينا حملة صليبية أخرى؟".

وقال الشيخ مجيبا:

لقد تجمعت لدي شواهد كثيرة على أن الغرب عامة – وأمريكا خاصة – يشن علينا حربًا صليبية جديدة بصراحة، أو متسترة بأسماء أخرى.

شواهد من الواقع

كما برزت في هذا الكتاب غزارة الطرح لدى الشيخ سفر لأمثلة من الواقع المعاصر، سردها ليقرب الصورة ويشرح الفكرة، سواء صراع أفغانستان أو العراق أو تصريحات الرئيس الأمريكي دونالد ترامب أو السياسات التي تعامل بها الغرب مع ما يسمى الإسلام السياسي والإسلام الراديكالي وغيره من مشاهد الصراع، ليكشف عن تناقضات عميقة وأحقاد ليست بجديدة. وهكذا ليرى كل ذي عينين أن الغرب أعرف بأهدافه منا، وأن تربيته وبيئته وتاريخه ومناهجه تقوم على حرب الإسلام.

كما شمل طرح الشيخ فوائد جامعة لكيف نقرأ ونحلل وكيف يحتل التاريخ مرتبة مهمة في توجيه سياسات الدول التي اعتبرت به.

ثغرات في طرح الشيخ

ولم يخلو كتاب الشيخ سفر الحوالي من الثغرات التي وُجِّهت لها انتقادات حادّة من بعض النقاد، ولا سيما أنه الشيخ الذي تناولت رسالته للدكتوراة موضوع العلمانية، وتخصص فيها مقاومًا المذاهب المعاصرة، وهو من وجّه انتقاداته القوية لموجة العلمانية التي تسعى لتغريب المجتمع السعودي. إلا أنه في ذات الوقت يثني – في كتابه – على تركيا التي تعتمد في دستورها العلمانية نظامًا للحكم، كما يعتبر الشيخ سفر انضمامها لحلف الناتو قفزةً هائلة من دولة كانت تعتبر مستضعفة ويستدل الشيخ بهذا الانضمام إلى حلف الناتو على أنه دليل على الرجوع التدريجي

للإسلام! بينما – الواقع – يُعتبر حلف الناتو حلفًا عسكريًا صليبيًا محاربًا للمسلمين وقد شهد الشيخ سفر بنفسه على هذه الحقيقة في تشخيصه للصراع في أفغانستان.

وما يعمّق التناقض في طرحه في هذه الزاوية تحديدا، أنه في حين ينتقد العلمانية بسند شرعي متين وأحكام واضحة لا لبس فيها يشيد بها سهوا أو عمدا كوسيلة مشروعة لجأت لها تركيا فيما يسمى النهوض العثماني الجديد. كما أنه برغم تبيانه لحقيقة أن الغرب محارب للإسلام بشتى قواه بما فيها العسكرية، يشيد بانضمام تركيا لقوى الغرب العسكرية المحاربة للإسلام معتبرًا هذا دلالة قوة وإغاظة لأوروبا التي رفضت انضمام الأتراك لاتحادها! وهو ما يعتبره ناقدوه تناقضًا جليًا في طرح هذا الكتاب الذي يقول كاتبه في أحد فصوله:

فالغرب يقيس الإسلام على النصرانية وعلى واقعه العلماني، لكن المسلمين يعلمون أن الإسلام دين ودنيا، وأنه لا مكان للعلمانية الغربية، ومن الصعب جدا فرز الآيات المتعلقة بالحكم والجهاد عن الآيات الأخرى.

إلى هنا نكون أحطنا معرفة بمحتوى جزء أولي من كتاب الشيخ سفر الحوالي، الذي أثار الجدل الواسع في الساحة بعد نشره وسجن مؤلفه. ولكننا لم ننته من سبر أغواره، فكونوا بالقرب، سنستمر في تبيان معالمه.

ماذا في كتاب المسلمون والحضارة الغربية للشيخ سفر الحوالي؟ – الجزء الثاني،

تحت عنوان ''تفوق الحضارة الإسلامية وتقدمها''، بسط الشيخ سفر الحوالي حديثه عن الحضارة الإسلامية وميزاتها، ولكنه نبّه إلى أن الحديث عنها إنما هو في صورتها المثلى التي كانت عليها في عصرها الذهبي، أي أيام النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والقرون الثلاثة المفضلة، وليس في عصور الانحراف الأخيرة.

وفي هذا الباب أسهب الشيخ في الحديث عن مرجع الحضارة الإسلامية، وهو الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

بعض ميزات الحضارة الإسلامية

كما سرد بعض ميزات الحضارة الإسلامية بتفصيل ملمّ،كاشفًا عند كل ميزة تفوقها على بقية الحضارات، منها أنها حضارة تقوم على الحجة والبرهان واليقين، وأنها حضارة توحيدية ربانية التشريع، وأنها حضارة ذات قيم وموازين خاصة ومعايير مستقلة، ولكل قيمة مفهومها الإسلامي الخاص الذي تختلف به عن سائر الحضارات. إنها حضارة إنسانية لكل بني آدم، لا تختص بعرق أو جنس أو لون. حضارة عدل مطلق، حضارة عفو وإحسان، حضارة المساواة، حضارة حق يجب قوله ويحرم كتمه، حضارة حب وتقدير، حضارة طيبات وأخلاق ووفاء والتزام واجتماع وألفة، إنها حضارة عمل، حضارة حقوق وآداب، إنها الأسبق إلى كل علم ومعرفة ومصلحة، حضارة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، إنها حضارة جهاد وإيمان، حضارة تنوع، إنها الحضارة الوحيدة التي للمصيب فيها أجران وللمخطئ أجر

واحد، حضارة تراعي سنن الله في المجتمعات، وتجتنب الأدواء الاجتماعية، حضارة توسط واعتدال، تدعو إلى الهمّة العالية من الصغير والكبير، حضارة شاملة كاملة تجمع بين خيري الدنيا والآخرة، حضارة ضمير ورقابة داخلية ووازع إيماني، حضارة شمول ومفاهيم واسعة، حضارة جادة في الأصل وإن أباحت اللهو بحدود وضوابط، تجعل بناء الإنسان هو المهم، حضارة لها مقياسها الخاص المتفرد، تحتكم لشرع الله وليس إلى الأهواء والنظريات البشرية والقوانين الوضعية، وفي الواقع كما يقول الشيخ سفر إنها "الحضارة التي يصعب حصر ميزاتها".

ومع تفصيل الشيخ لكل ميزة قدم الجواب على سؤال: متى بدأ العصر الحديث؟ وبسطًا لحقيقة العبادة والتوحيد والشرك والطاغوت والجاهلية وغيرها.

التاريخ العقدي الإسلامي

وتحت عنوان ”موجز للتاريخ العقدي الإسلامي“، استعرض الشيخ التاريخ العقدي في الإسلام موجزًا، لكي تكون مقارنتنا بين الحضارتين عادلة، ولكي نعرف أسباب ما يقال عن تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، ولبيان درجة الانحراف عن الكتاب والسنة، والفِرَق التي أثرت في الحياة الإسلامية وجعلتها لقمة سائغة للغرب. وبدأ برأس الفساد، الماسونية.

ومما ينبغي لطالب العلم معرفته بحسب الشيخ، أن الفرق الإسلامية ليست جماعات منقرضة، بل هي ظواهر عامة، والظاهرة تعود متى توفرت شروطها الموضوعية. ومع انتشار التصوف والرفض والإرجاء والفلسفة والكلام، ظلت في هذه الأمة طائفة منصورة، تجاهد على أمر الله لا يضرها من خذلها أو خالفها، وهكذا أحيت الأمة فريضة الجهاد، وظهر فيها السلاطين المجاهدون مثل نور الدين وصلاح الدين،

رحمهما الله، الذين عرض الشيخ سيرتهما قائلًا: ”هذه الأمة المباركة تمرض ولكنها لا تموت، وقد تشغلها الشهوات ولكنها لا تنسى الجهاد“.

تاريخ الفِرق وتأثيراتها في الأمة

كما تناول الشيخ أيضًا الحديث عن العبيديين، وظهور القوميات التي غذاها الغرب، على نهج «فرق تسد»، ثم أفرد بابًا خاصًا بالصوفية، أحد أمراض هذه الأمة التي تشجعها أمريكا وتعتبرها معتدلة، وبابًا آخر خاصًا بالإرجاء، والذي يعتبر أخطر البدع التي ابتُلِي بها المسلمون، وقد ضرب الشيخ مثلًا في هذا الباب بالحَجَّاج، وأسهب في ذكر مناقبه وجهاده، رافضًا أن يقاس حكام العصر على الحجاج؛ إذ أنهم أشد ظلمًا وفسادًا، حيث قال في وصف الطواغيت المعاصرين: ”يظنون أن أمريكا على كل شيء قدير، ويعتقدون أن تقلب الذين كفروا في البلاد أمر حتمي دائم لا حيلة فيه، وأن الفكر والحضارة والتقدم هي فيما جاء به الغرب وحده، وما عداه ماضٍ يجب تركه والتخلي عنه“.

وبعد تعرية صفاتهم قال الشيخ الحوالي: ” هؤلاء الطواغيت الحكام –الذين يُطبّل لهم المرجئة– يجب الإنكار عليهم، ولا تجوز طاعتهم، وإن صلى أحدهم وصام وحج وزعم أنه مسلم كما جاء في الحديث“، ويمكن اعتبار انتشار التصوفيين المسلمين – بحسب الشيخ– سببًا ونتيجة لانتشار الإرجاء.

الرافضة وقراءات الشيخ العميقة

وعلى غرار الصوفية والمرجئة، أفرد الشيخ بابًا خاصًا بالرافضة، وعن نشأتهم وعلاقتهم بأعداء الإسلام، مستدلًا بحقائق من التاريخ والواقع المعاصر. وفي هذا الباب سلّط الضوء على مجوسية الرافضة، وعلى صلتهم بالصوفية وبالنصيرية وبالإسماعيلية وبالمرجئة وبالحوثيين وبإيران، وتعدد فرقهم وعقائدهم الباطلة،

مستشهدًا بموقف المتكلمين منهم، وكذلك سلّط الضوء على الاحتلال الصهيوغربي ووثيقة مكة. وعلى عداوة الرافضة لأهل السنة موضحًا الحكم فيهم.

ونبّه الشيخ على أنه لا يصح العمل بتقارير الخارجية الأمريكية عنهم، ولا المنظمات الحقوقية التي تتيح حرية الاعتقاد، قائلًا: ” فأمريكا نفسها بيتها من زجاج، فكيف ترمي الناس بالحجارة؟! وإنما جرأ أمريكا علينا تبعيتنا لها “.

وقد خلص الشيخ إلى أن العداوة مع الرافضة دينية عقدية وليست سياسية. ومعلوم أن السياسات تتبدل، أما العقائد فهي ثابتة، فيجب على أهل التوحيد التعامل مع الثابت لا مع المتبدل، بحسب وصف الشيخ.

كما انتقد في هذا الباب مرة أخرى السلطات السعودية لعدم اكتراثها بما يمكره الرافضة لأهل السنة، وقال: ”وقد وعد بعض المسؤولين بمعاقبة الرافضة، ثم إنه هلك فلم يعاقب أحدًا، وهو مثل وعده بمعاقبة العلمانيين والليبراليين، فالقوم يخدعوننا ويكذبون علينا ويجعلون للأعداء المناصب وللأصدقاء السجون! “.

تجديد الحضارة الإسلامية بالدعوة السلفية

وتحت عنوان ” تجديد الحضارة الإسلامية بالدعوة السلفية المباركة“، تناول الشيخ الدعوة السلفية التي دعا إليها الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله. معددًا آثار هذه الدعوة في العالم، وكذا بيئتها وميزتها وموقف مؤسسها من الدولة العثمانية التي لم يخرج عليها بحسب الشيخ.

ثم –ولمكانة الشيخ الألباني –رحمه الله– وأهمية ما دعا إليه، ولتأثيره الكبير اليوم على المسلمين– كان لا بد للشيخ من التعريج عليه بشيء من الإطالة، مع ذكر بعض العبر والاستنباطات التي ظهرت من خلالها مواقف الشيخ سفر التي لا يتفق فيها مع ما ذهب إليه الشيخ الألباني من اجتهادات، فعدد في هذه الإطالة أخطاءه وردود بعض أهل العلم عليه.

ليتطرق بعد ذلك للحركات التجديدية قبل دعوة الشيخ عبد الوهاب أو خارجها، ثم لأعداء الدعوة السلفية، وهم بحسب الشيخ أربعة: الغرب، وأهل الشرك والبدعة والخرافة، والغلاة، والمنافقون. وفي هذا الجزء، أمعن الشيخ في تعرية الليبراليين وكشف عوار الإسلاميين الجدد الذين يعتبرهم من أخطر أعداء الدعوة في زماننا، أو ما يعرف بـ''المعاصرين''، أو''التنويريين''.

حركات موالية للغرب باسم السلفية

كما أوضح الشيخ الأسباب التي دفعت أعداء الله على مدار التاريخ إلى إنشاء حركات موالية لهم بأسماء سلفية، وقال: ''فلما أخفق الإنجليز في مقاومة الجهاد الإسلامي في الهند أنشأوا القاديانية، ولما غزا الأمريكان العراق نشروا فتوى السيستاني عن تحريم مقاومة الأمريكان، ولما قدمت جيوشهم إلى الخليج واحتلوا جزيرة العرب، وضعفت حجتهم في أن هذا مجرد استعانة، أسسوا ''الجامية''، ولما رأى الأمريكان النجاح المطرد للإسلام صنفوا أهل الدين إلى معتدل ومتطرف أو إسلامي وإسلاموي''.

والشيء المجمع عليه بين كل حركاتهم بحسب تفصيل الشيخ، هو وجوب طاعة الحاكم ولو كان متغلبًا، بل وإن كان غير مسلم، والسلاح لا بد من جمعه من أيدي الناس سلبًا لحريتهم، والجهاد محظور، أو يضعون له شروطًا تعجيزية، ويقولون إن كل من جاهد إرهابي، مع أن الأمم المتحدة لم تضع حتى الآن تعريفًا ''للإرهاب! ''.

الفكر الديني

وتحت عنوان ''الفكر الديني''، تناول الشيخ أصل الدين عند الغربيين والمسلمين على حد سواء، وكيف تعامل الغرب مع المسلمين ووصموهم بالإرهاب، مع أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم التي حكمت عليها محكمة العدل الدولية بأنها دولة إرهابية كما ذكر تشومسكي.

من هو تشومسكي؟

وقد سلط الشيخ الضوء على تشومسكي وآرائه فقال: ''تشومسكي ليس مسلمًا ولا عربيًا، بل هو يهودي عاش في إسرائيل وأمريكا وتكلم عنهما كلام المطلع الخبير. وهو ليس كاتبًا مغمورًا، بل هو أكبر كاتب أمريكي، وتأتي كتبه عندهم في المرتبة الثانية بعد كتابهم المقدس مباشرة، كما أنه، وفق المعايير الليبرالية، ليس إرهابيًا ولا عدوانيًا، بل متقدم متحضر، وهو يؤمن بالإسلام الأمريكي المعتدل كما يقول العم سام، أي الذي لا جهاد فيه''.

ظلم الغرب للمسلمين ونظرتهم لدول الخليج

وفي هذا الباب، أمعن الشيخ في توصيف ظلم الغرب وعدوانهم بحق المسلمين، سواء في إعلامهم حين يتغافل عن مصاب آلاف المسلمين ويكثر الحديث عن غربي واحد أصابه أذى، وكذلك الأمم المتحدة التي تستنفر لصحفي غربي وتتغاضى عن قتل بشار الأسد لآلاف السوريين.

ثم نظرتهم لدول الخليج كمجرد مجموعات من البدو المتأخرين، لديهم ثروات لا يستحقونها، معتبرين أدلة غبائهم وتأخرهم كثيرة منها: أنهم يبيعون النفط بأقل مما يشترون الماء المستورد من الغرب، وأن الشركات التي تستخرج النفط والغاز غربية! ومنها أنهم يبالغون في الاحتفاء بمن يزورهم، ومنها أنهم يعقدون الصفقات الضخمة

مع من يعاديهم، ومنها أنهم لا يعتبِرون، بل يصادقون اليوم من كان عدوًا لهم بالأمس، والمهم أنه يمدحهم إعلاميًا ويقول إنهم سائرون في طريق التقدم! ومنها أن يعامل الغربي غير ما يعامل به المواطن، فللغربي ميزات كثيرة مهما كان جهله أو عداوته.

ومثل دول الخليج سائر الدول التي تقول إنها إسلامية: فهي تبيع الأطنان من القطن أو الكاكاو أو الصمغ بثمن بخس للغرب الذي يبيع الجرامات من ذلك بثمن غالٍ.

مكانة الدين والمتدين

وتحت عنوان "مكانة الدين والمتدين عند أهل الكتاب" تحدث الشيخ عن الفَرْق الهائل بين الدين والمتدين في الغرب، وبين الدين والمتدين في البلاد التي تدعي أنها إسلامية، قاصدًا الحكومات وليس الشعوب. وضرب أمثلة عديدة على ذلك، بما فيها اهتمام الغرب بالعمل الخيري وبناء دولهم، على عكس حكومات تحكم المسلمين وتنهب ثرواتهم، وقد ضرب مثلًا شركة أرامكو، كيف تمت "سعودتها" في حين بقيت أمريكية الأصل.

الكيان الصهيوني

كان للكيان الصهيوني نصيب من الطرح، ظهر خلاله رأي الشيخ في نتنياهو الذي يحمل فكرة شعب الله المختار وفكرة أرض الميعاد. وبرزت معرفة الشيخ الدقيقة باختلافات اليهود، وكيف هو حال اليهود غير الصهاينة وحيلهم التي يوظفونها لتحقيق مآربهم، مع نبذة عن تاريخهم وواقعهم، ختمها بحكم شريعة الإسلام فيهم، والذي ينص على عدم ظلمهم ولكن على إخراجهم من حزيرة العرب، موجهًا النقد مرة أخرى لحكام آل سعود قائلًا: " أما أن يسكن أهل الذمة المنطقة الشرقية أو

الرياض أو جدة، فذلك لا يجوز، وكل الكفار والمبتدعة ينبغي إذلالهم، ولكن لا يجوز ظلمهم. وأشنع من ذلك ما نراه اليوم من مئات الآلاف من الأوروبيين الأمريكان، مع ما لهم من ميزات لا يحلم بها مواطن فضلًا عن المقيم. كما يحرم بناء الكنائس أو معابد الهندوس في جزيرة العرب، والسماح بذلك مخالف للكتاب والسنة وإجماع الصحابة والفقهاء، ولكل ما درجت عليه الدول الإسلامية المتعاقبة. فالمسألة إجماعية ولم ينسخ منها شيء".

ثم فصّل الشيخ حقيقة الصهيونية النصرانية وأصل الدين لأهل الكتاب، والتي اعتبرها أخطر من الصهيونية اليهودية. وكذلك فصل إرهاب اليهود، ضاربًا الأمثلة من التاريخ والواقع.

الدين والثقافة في أمريكا

لم تتوقف غزارة الطرح في كتاب الشيخ سفر الحوالي في تبيان تاريخ المسلمين وفكرهم، بل ظهر جليًا أيضًا بشدة اطلاعه على الثقافة الغربية، وتعمقه في مصادر الكتابات عنها، حيث تناول الشيخ الدين والثقافة في أمريكا، ووصف هذه الثقافة بثقافة كتابية، والقيم فيها بقيم يهودية ونصرانية، كما قرر "ستيف بانون" أستاذ "ترامب"، بحسب وصف الشيخ. أما الإيمان الغربي فهو إيمان توراتي، يؤمن به النصارى كما يؤمن به اليهود؛ إذ التوراة شريعة للجميع. وفي هذا الباب، أتقن الشيخ تبيان تناقضات معتقدات الغرب، مؤكدًا أن الشرك واحد، ومظهرًا الفروق بين دين التوحيد ودينهم، مستندًا إلى أمثلة وبيّنات عديدة.

المستشرقون

كان للمستشرقين نصيب من الذكر في طرح الشيخ سفر، وخصهم بعنوان "المستشرقون كهان الفكر"، وقد سلط الضوء على ضعفهم وسوء فعالهم.

أغلال الجبريات وفساد العقائد

وبالتأكيد على أن الشرك لم يتغير، بقي ذاته في الماضي والحاضر، تناول الشيخ تعريف الجبرية الحديثة، وأنواعها الاقتصادية والتطورية والنفسية والاجتماعية والسياسية والنسائية، وهي الجبريات التي حبست الإرادة الإنسانية لتجعل من الإنسان عبدًا مسيرًا لا حرية له في ظل هذه الحضارة.

وسلط الشيخ الضوء على عقيدة وحدة الوجود، وهي من أخطر العقائد في الغرب والعالم كله. لها تاريخ وحاضر وضرر وفساد كبير.

لينتقل بعد ذلك مبرزًا درايته الواسعة بالديانات وتاريخها، إلى ديانات حوض البحر الأبيض المتوسط الغربية. ومخصصًا فقرة عن الديانة في اليابان، وتأثرها بالغرب.

طائفتا اليهود والنصارى

توسع الشيخ بشيء من التخصيص في باب عن أهل الكتاب –المغضوب عليهم والضالين– وهم اليهود والنصارى. وهنا يبسط الشيخ العديد من الأمثلة المستقاة من تاريخ الإسلام القديم والحديث مع هاتين الطائفتين، وواقعهما الذي يصل أحيانًا إلى الطرافة.

تناول فيه فِرق اليهود، وتحريفهم للتوراة، وتلونهم بلون البيئة المحيطة بهم فيماثلونها في شركها، وقدرتهم على التنظيم التي تبدو بوضوح في عالم الاقتصاد، مؤكدًا أن مرجع اليهود والنصارى واحد، هو التوراة.

وبنفس التفصيل، تناول الحديث عن النصارى وعن المسيح في الأناجيل، وتناقضاتهم الكثيرة، معرجًا في ذات الوقت على ابتداعات رجال الدين والمدافعين عنها

كـ"أنيس شورش"، العربي الفلسطيني الذي خصه الشيخ سفر بنصيحة عنوانها "محبة الخير ودعوة صادقة للإسلام ".

وبوضوح أيضًا، برزت سعة اطلاع الشيخ في هذا الباب بالأناجيل القديمة، وقدرته على تقييم درجة معرفة الغرب بنصرانيته، وحقيقة الفاتيكان، وكل ما يدور في فلك انحرافهم وضلالهم.

وفي جواب على سؤال: هل يختلف الصهاينة والأمريكان؟ يقول الشيخ سفر: "الجواب نعم، يختلف اليهود فيما بينهم! من كان منهم في إسرائيل ومن كان في الكونجرس، ولكنهم يتفقون كلهم على العمل لمصلحة اليهود، فالخلاف بينهم في الوسيلة فقط، أو كما يقولون: تكتيكي. بل حتى الجماعات اليهودية المعادية للصهيونية ترى أن مصلحة اليهود هي بقاؤهم مشتتين وخاضعين لحكم مجتمعاتهم حتى ينزل المسيح، وأن الصهيونية ضد إرادة الله وضد التوراة، والمصلحة تقتضي بقاءهم خاضعين لحكم المجتمعات القاطنين فيها، وأن يدينوا لها بالولاء، وأن الله هو الذي يقيم الدولة على يد المسيح المنتظر".

وفي خاتمة هذا الباب، أكد الشيخ الحوالي على أنه بدل التلون والتنقل بين فِرق أهل الكتاب، على الغربيين أن يقرأوا ترجمة القرآن والصحيحين ليعرفوا حقيقة الإسلام ومحاسنه. فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها.

لم ننتهِ من تبيان معالم كتاب دفع صاحبه ثمنًا له حياته، ويعتبر خلاصة علمية جامعة زاخرة تكشف درجة معرفة الشيخ سفر ودرايته بالحضارتين الإسلامية والغربية. فكونوا بالقرب؛ لا زال فيه ما يستحق الذكر.

ماذا في كتاب المسلمون والحضارة الغربية للشيخ سفر الحوالي؟ – الجزء الثالث،

ويستمر الشيخ سفر الحوالي بضخّ تحصيله العلمي الفائق من أعماق الكتب والقراءات التي استخلص منها موسوعة من المفاهيم الغزيرة جمعها في كتابه ”المسلمون والحضارة الغربية“، ولقد ظهر بجلاء عمق اطلاع الشيخ على الفكر الغربي وعلى مصادره وجذوره، ما أكسبه مهارة في مقارنة الأديان وقدرة ملفتة على الاستنباط من ثقافة كل أمة وبلد.

من أبواب الفكر الديني – هيئة الأمم المتحدة

وفي فصل الفكر الديني، أفردَ بابًا خاصًا بعنوان ”هيئة الأمم المتحدة والدين الإنساني“ عرض فيه مساعي الأمم المتحدة لوضع دين إنساني للعالم كله يقوم على التجربة البشرية والعلم البشري، وتريد فرضها كحكومة عالمية. ومعلومٌ أن أمريكا التي تتزعم العالم الغربي والرأسمالي والحضارة الغربية البائسة هي التي ترسم سياسة هيئة الأمم المتحدة، والتي تكن العداء العميق للوهابية التي وصموها بالتطرف، ثم عمدوا لحربها على كل الأصعدة، بحسب ما ورد في هذا الباب.

وفي الواقع يرى الكاتب أن أمريكا تدعو علنا إلى ما تسميه القيم الكتابية (اليهودية والنصرانية) باسم القيم الحديثة. وتقف أمريكا مع اليهود والنصارى وتعادي الإسلام في كل مكان، من قبل كيسنجر وبعده، وحق النقض في مجلس الأمن "الفيتو" دائما لصالح إسرائيل، واسترسل الشيخ في تعداد تناقضات الأمم المتحدة.

وبعد عرض الأسباب الشرعية والواقعية قال الشيخ عن هيئة الأمم المتحدة:

"يحق لنا القول بأنه لا يجوز الانضمام لهذه الهيئة ويجب الانسحاب منها فورًا".

من أبواب الفكر الديني – التشبّه

وأفرد الشيخ في هذا الفصل بابًا وافيًا عن التشبه، الذي وصفه بأنه من الانحرافات العقدية الخطيرة التي وقع المسلمون فيها في عصرنا الحاضر، ومن دلائل الهزيمة النفسية عندهم (التشبه بالغربيين) في كل شيء تقريبا حتى في رطانتهم ولباسهم واحتفالاتهم.

وانتقد الشيخ تعامل الحكومة مع الحوثي وعرض أخطاءها في معالجة عدوانه، ثم تقليدها للغرب في السينما والتبرّج والمسكرات والزنا والربا والانحلال والفساد وحب الدنيا، الذي يسمونه التنمية وزيادة الدخل، أما النظام والعدل والتقدم الصناعي والمساواة الحقيقية فلا يشيرون إليها. كما شدد على أهمية التقويم الهجري الذي ليس مجرد شكل، بل هو أصالة وتميّز لهذه الأمة.

انتقاد لما يسمى رؤية 2030م

انتقاد آخر وجهه الشيخ لما يسمى رؤية 2030م لاعتمادها التقويم الغربي الجريجوري المسمى الميلادي، باعتبار العمل بحسب هذا التقويم مخالف للنظام الأساسي للمملكة الذي ينص في المادة الثانية (أحكام عامة) على أن تقويمها هو التقويم الهجري، وهو كذلك مخالف لما درج عليه المسلمون (المؤرّخون وغيرهم)، وتساءل الشيخ قائلا:

"كيف ننتهك النظام الأساسي، ونطالب المواطنين اتباع الأنظمة؟! أليس في ذلك كشفا للنية المضمرة عن جعل البلاد ذيلا للغرب؟".

وأضاف في نفس السياق:

"فكيف تنتكس عقولنا فنتبع الغرب في تقويمه، أو نقلل عدد زائري بيته المحرم، وننشئ مشروعات سياحية تكلف المليارات في أماكن صحراوية مقفرة، هذا عدا ما في السياحة من تعرٍ وفساد واستنكار الناس هنا لذلك؟".

من أبواب الفكر الديني – أثر الذنوب

وكعادته في الاستفاضة أفرد الشيخ بابا لأثر الذنوب. التي هي سبب الهزيمة وسبب كل مصيبة. وأحسن التفصيل فيها وأجاد، وأعقبها بنصيحة للمسلمين في الخارج، قال فيها:

"فأقول نصيحتي لكل مقيم في بلاد الغرب من الدعاة أن يظل هناك ويستمر في دعوته، ولا يزين له الشيطان أنك لو جئت للسعودية وتعلمت العقيدة لكان ذلك خيرا لك. فهنا يقولون إنك أجنبي، ويطالبونك بالترخيص للدعوة، ويعلمونك العقيدة كما توصي بها التقارير السرية. وأنصح من كتبَ له الله القدوم إلى هذه البلاد من خارجها أن يعجّل بالعودة إلى بلاده والدعوة إلى الله فيها، فقومه خير له في دينه ودنياه، وهم أعرف الناس بمنزلته، وليعش على ما عاشوا عليه من رعي أو زراعة، وقبيلته في إفريقية وآسيا تعيش في دول عدة وفق التقسيم السياسي الاعتباط،. وليس هناك حواجز أو تفتيش أو ترحيل، ولا يطالبك أحد ببطاقة".

ولعل من أبرز ما خلص له الشيخ في هذا الفصل أن كل خيرٍ اهتدت إليه أوروبا سواءٌ في مجال الحقوق أو الحريات أو الحضارة الإنسانية قد سبقها إليه الإسلام منذ عقود، وقدّمه بإتقان وكمال لا ندّ له، ولا يجادل أحد في تأثير الفكر الإسلامي في الدعوات الغربية كالتي دعا إليها مارتن لوثر وكلفن في باب الإصلاح الديني برؤيتهم القاصرة.

فصل خاص بالفكر السياسي

وفي فصلٍ آخرٍ زاخرٍ بالاطلاع والمعرفة، يحمل عنوان ''الفكر السياسي'' أكّد الشيخ أن الاستعراض السريع لمجمل التاريخ البشري يثبت أن كل دين أنزله الله هو دينٌ شاملٌ للدنيا والآخرة، وأنه ليس في الدين إسلام سياسي وآخر غير سياسي.

وضرب مثلاً على السياسة المعاصرة يثبت فيه أنها لا أخلاقية، وأن التلاسن الظاهري قد يخفي تحته الولاء، فأمريكا التي تعادي إيران ظاهريًا هي نفسها تؤيد موقف إيران في اليمن، وتحارب معها أهل السنة في العراق، وكلاهما يقول أنّ الخطر هو''الوهابية''، وكلاهما يعتقد أن الوهابيين ليسوا من أهل السنة.

وأسهب الشيخ في كشف تناقضات السياسة المعاصرة وفضح كواليسها وعوراتها، سواء في العالم الغربي أو العالم العربي والتي وصفها بتناقضات غاية في الفحش والشناعة؛ بسبب أنها لم تقم على قواعد أخلاقية.

وفي هذا الفصل تحدث عن أثر الإسلام في الفكر السياسي الحديث بإيجاز، ومبادئ الفكر السياسي في الإسلام ومعالمه وأفرد بابًا خاصًا بالإمامة التي ظهر تركيزه الشديد فيها على شرط القرشية لمن يتولى الخلافة موضّحًا حكم الدخول على السلاطين وما يتعلق بمفهوم السلطان من حقوق وواجبات.

وبابٌ آخرٌ للحرية في المال قدّم فيه تعريفًا لمفهوم الحرّية ومصطلحاتٍ من قبيل التجسس، وبرز تأثّره بقضية الحرية في التبرع التي استشهد فيها بأمثلة من الواقع حيث قال:

"وبعض أثرياء الخليج تبرّع للكفار بمليار دولار وأين؟ في مقر مركز التجارة العالمي! وسوف يسألهم الله من أين أخذوا هذا المال وفيم أنفقوه، وليست المسألة عبثاً يسمّونه حرية كما يعتقدون، بل أمانة ومسؤولية، وليبشّر كل من يتبرع للكفار بالفقر وإن أمهله الله. ومن ذلك التبرع للنوادي الرياضية الغربية كما يتبرع لها بعض المبذرين هنا.. ولماذا لا يدفعون الأموال للفقراء الذين في مكة وحولها خصوصا في تهامة والساحل ومناطق كثيرة من الجنوب الذي يستهزئون به كثيرًا؟ لا سيما في جازان وصبيا وبيش وأبي عريش، بل إن الفقر [موجودٌ] في المدن الأخرى الكبرى، وقد زار بعض المتطوعين "أضم" فرأوا الفقر الشديد هناك".

وقال مستشهدًا بموقف عايشه بنفسه:

"وأنا استدعيت وقيل لي كيف تتبرع للصومال بغير إذن من الحكومة؟ فكتبت لوزير الداخلية في حينه سورة ''الماعون''، وذلك حين كان لي وظيفة. والآن أصبح التبرع نوعا من ''الإرهاب'' لا بد أن يسجن أصحابه كما فعلوا بمؤسسة الحرمين الخيرية، ومن العجيب أن بعض الإدارات في جدة ظنّ أن كل شيء عليه اسم ''الحرمين'' تابع لهذه المؤسسة، فجاءوا بورشة الحرمين ومغسلة الحرمين وكل ما فيه ذكر الحرمين! ولا أدري أسَلِم منهم طريق الحرمين أم لا؟!".

وأخير أفرد بابًا عن القضاء والقضاة الذي ناقش فيه مسألة الخروج على الحاكم، وشخّص فيه حال القضاء السعودي وما هو عليه من اضطراب وفساد وعدم استقلالية ووصف علاجه قائلا:

"ولو أن القائمين عليه أرجعوا كل شيء للشريعة الغرّاء وجعلوا القاضي مستقلاً حقاً لسلم من ذلك".

كما لم يخلو هذا الباب من سرد لقصص من الواقع عن ظلم القضاء السعودي وممارسة التعذيب والإرهاب بحق المعتقلين، وشهد الشيخ في هذا الشأن قائلا:

"وأنا أعرف بعض من عُذبوا ومنهم جعفر الحايك الذي مات تحت التعذيب، وممن عذبوه الشليل والحكمي والقحطاني، وغيرهم ممن أخاف عليه ولا أسميه، كما رأيت بعض أدوات التعذيب ومنها الدينامو، كما رأيت آثار التعذيب في سجن "الحائر"، وبعض الناس اعترف تحت التعذيب وأقيم عليه حد القصاص، وبعد موته جاء القاتل الحقيقي وسلم نفسه واعترف بتفاصيل القتل! ومن العجب أن يحكم القضاة ببراءة شخص بينما يكون قد أمضى الشهور بل السنين وهو يحقق معه أو يعذَّب! كما إني أعجب لمن يحكم الأمريكان بإطلاقه من "غوانتانامو" ثم يسجن هنا، وبعض الدول القريبة تطلقه فورا، ولا يعترض الأمريكان على ذلك، وإن اعترضوا فلا قبول لاعتراضهم".

وقد أعطى الشيخ لكل بابٍ حقّه من التفصيل والسرد وضرب الأمثلة من التاريخ والواقع.

ومن ملاحظاته الهامّة في هذا الفصل أنّ تطور الفكر الديمقراطي كشف عيوب الثقافة الغربية وأظهر كيف أن السيادة للأقوى بحق النقض والدول الخمس الدائمة العضوية يناقض ميثاق الأمم المتحدة، الذي ينص على المساواة، وقانونها الدولي القائم على التساوي بين الأعضاء!

وخلاصة القول:

"إن الدعوة إلى الديمقراطية أو أية فلسفة غربية أو شرقية هي اتباع دينٍ غير الإسلام، وهي شركٌ بالله تعالى حذر منه كل الأنبياء، وآخرهم وأفضلهم نبينا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، وهو صلوات الله عليه لم يحذّر من الشرك فقط، بل سدّ الذرائع الموصلة

إليه، وحمى التوحيد وحاطه من كل جوانبه. فالمسألة في منتهى الخطورة، والتوحيد هو أعظم ما دعا إليه المصلِحون في كل زمن".

ترامب

دونالد ترامب من الإنجيليين الجدد المتعصبين لإسرائيل، كان حاضرًا في طرح الشيخ وبقوة، فقد استرسل في وصفه ووصف منهجه وفترته الرئاسية الجارية، مسلّطًا الضوء بمرارة على موقفه من السعودية التي في نظره ليست إلا ''كيس فلوس ضايع ''!

وفي خضم هذه المرارة تطفو أحاسيس روحه المثقلة ليقول:

"أقول: نستحق ذلك لأننا سكتنا ولم ننكر المنكر، ورضينا بالحياة الدنيا من الآخرة، وما بقي إلا تكلفة بناء الهيكل، فهل تبنيه الإمارات مثلاً؟ تلك الإمارات التي تشتري البيوت من المقدسيين وتعطيها لليهود، أم نبنيه نحن ونحفر القناة بين البحر الأبيض وخليج العقبة؟ قد يقال إنّ هذا خيال، لكن أقوال ترامب نفسه لا تدع للريب مجالاً ، وقد صرّح أنه على العرب تمويل دفاع أمريكا عنهم، وعليهم تمويل المناطق الآمنة التي تقترحها أمريكا في سوريا، وتمويل الجيش الأمريكي إن أرادوا بقاءه فيها".

ثم أعقب هذا الشجن بدعاءٍ جاء فيه:

"نسأل الله أن نعود لرشدنا، وأن نتمسك بديننا، ونعرف عدونا من صديقنا، وأن نجاهد في سبيله، وأن تكون الآخرة أحب إلينا من الدنيا، وأن يُبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل طاعته ويذل فيه أهل معصيته، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، وعزاؤنا في هذه المصيبة الجلل أن بغض اليهود يجري في عرق كل مسلم مع الدم، وأن قلوب كل المسلمين تعاديهم".

ومن أبرز ما برق في ذكر ترامب في هذا الباب، قول الشيخ:

"من المعلوم أن دونالد ترامب ينتمي للكنيسة الإنجيلية (الفرع المشيخي) ولكن الكنيسة تبرأت منه؛ فمتى يتبرأ منه المسلمون؟!".

فصل خاص بالفكر الاجتماعي

وتحت عنوان الفكر الاجتماعي تناول الشيخ الحديث عن علم الاجتماع، وفيه سلّط الضوء على أنّ الحضارة الغربية كثيرةُ الأمراض الاجتماعية. وأن المجتمعات الغربية اليوم قسمان متناحران كبيران، أحدهما شيوعي أو اشتراكي، قد يقال له اليساريون، والآخر رأسمالي ربوي قد يقال له اليمينيون.

وفي باب آخر منفرد تناول الشيخ الحديث عن بعض المجتمعات الإسلامية وكان منها العناوين التحتية اللافتة: سلطنة عمان، أزمة الخليج، بلاد الشام، العراق، السودان، تركيا، القصيم، مصر، إندونيسيا، مجتمع رجال الأمن، إفريقيا القارة المستباحة، جماعة الإخوان المسلمين وبقايا الدين في المجتمعات العربية.

ومما ذكره الشيخ عند إعطائه فكرة وجيزة عن الإعلام، وسرده لتاريخ النشاط الإعلامي في السعودية، ذكره لملاحظة على جريدة الشرق الأوسط حيث قال:

"ومن عجائب جريدة الشرق الأوسط أنها كانت تطبع نُسخًا محدودةً جدا خاصةً بالزعماء العرب الذين انتقدوا الجريدة ومنهم معمر القذافي، وكان كل منهم يقرأ النسخة الخاصة به ويظن أنها النسخة العامة من الجريدة!".

وختم الشيخ هذا الفصل بباب مفصل عن البيئة والنظافة وفصل فيه وأجاد كعادته.

فصل خاص بالفكر العلمي

أما فصل الفكر العلمي فلخّص فيه الشيخ بشكل أبوابٍ الفكرَ العلمي ومصدر المعرفة والمنهج العلمي والتأليف. كما أفردَ بابًا خاصًّا ببعض ميّزات المنهج المعرفي الإسلامي وضوابطه، وآخر للفلسفة وآخر لقضايا علمية عامّة. كذلك فعل مع الفنون العلمية المختلفة كالهندسة والرياضيات والصيدلة والطاقة والطب، والصناعة والفلك والأحياء، وعلم النفس واللغة والأدب والفن.

المَخرج من كيد الغرب وكيف نتّقي لَفَح الحضارة الغربية

ثم في فصلٍ آخر عنونه الشيخ بعنوان "المخرج من كيد الغرب وكيف نتقي لفح الحضارة الغربية" يجيب الشيخ بعد ما سبق من استعراضٍ إجمالي لأهم مناحي الفكر، وما ينبغي لنا إزاءها على سؤال شديد الإلحاح، تاهت في الجواب عليه كثير من العقول الجبّارة، وهو ما المخرج من هذا الكيد والمكر؟ وكيف نتقي لفح هذه الشرور التي تهب علينا من الشرق والغرب، أو كيف نقود نحن العالم ونستعيد مجدنا؟

فالمسلمون اليوم في مخاض شديد وولادة صعبة، ولكن لا يفوتنا أن الإسلام لا يولد طفلا ضعيفًا وإنما يولد عملاقًا هائلا يرتجف منه الشرق والغرب. بحسب تعبير الشيخ.

واسترسل في سرد الجواب في هذا الفصل على شكل أبواب، بالحديث بداية عن الزهد في الدنيا ومعرفتها على حقيقتها كأهم ما يستعين به المسلمون على المادية الغربية الجارفة وعلى الأزمات الاقتصادية المتعاقبة، ثم الجهاد الذي سلّط فيه الضوء

على ضرورة ترتيب العداوة، وعلى مشكلة ما يسمى الإرهاب. مُبرزًا كيف يكون أثر الترف في التخلي عن الجهاد سببا في سقوط الدول. ومستشهدًا بقاعدة مهمة في رقي الدول، حين تتوازن العوامل الثلاث التي ذكرها ابن طباطبا بعد استقرائه لحال أكثر الأمم، وهي:

1. الحاكم العادل.
2. العالم العامل.
3. الرعية المجاهدة.

وهذا ما تتيحه الخلافة على منهاج النبوة ونرجو أن يتوفّر أيضا، بحسب ما علق الشيخ في هذا الفصل.

فصل ختامي: لمن المستقبل؟

ثم فصلٌ زاخرٌ آخر بعنوان لمن المستقبل؟ وهنا ألقى الشيخ بعصارة فكره وظلال اجتهاده ليلخّص فيه المفاهيم التي رسّخها في تأكيد أن المستقبل هو لدين الفطرة دين الإسلام العظيم.

ملاحق لا تقل أهمية

وفي ختام سفره الثقيل، قدم الشيخ سفر الحوالي في ملاحق منفصلة، نصيحةً خاصة موجهة للعلماء، وأخرى خاصة موجهة للدعاة. ثم نصيحة للعائلة الحاكمة في بلاد الحرمين، آل سعود، وعرض فيها بعض الأوضاع الموجبة للإصلاح الفوري بحسب رأيه.

ليجعل مسك الختام مجموعة من النتائج والتوصيات لكل فرد ولكل مجتمع إسلامي.

كلمة أخيرة

لقد خط الشيخ سفر الحوالي كتاب المسلمون والحضارة الغربية بشعور المودّع، الذي يتأهب للرحيل. تشدنا فيه تلك الغزارة في الطرح، والكمّ الهائل من المعلومات الذي يعكس معرفةً عميقة بالكتابات المختلفة المصادر والعقائد، سردها بشكلٍ مطول ولكنه سريعٌ يؤكد أنه حاول الاختصار كثيرًا، ومع ذلك تعدى الثلاثة آلاف صفحة!

لا ندري عن مصير المؤلف، رحمه الله حيًا كان أو ميتًا ولكننا نشهد بأنه أفضى ما في جعبته ورفع ثقل الأمانة عن كاهله ونصح في الله وقال كلمته الحق في سلطانٍ جائر، وأما عمّا أصاب فيه أو أخطأ فهو بين الأجر والأجرين، كما نحسبه، وإنما يمضي الرجال ويبقى الأثر، وهذا أثر رجل نهايته مشرّفة.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

الفريضة الغائبة

لمحمد فرج

تناول المهندس مُحَمَّد عبد السلام فرج في كتابه "الفريضة الغائبة" تأصيلا شرعيا وتفصيلا علميا متينا يحيط بفريضة الجهاد، وتبرز أهمية هذا الكتاب في كون كاتبه الذي كتبه في عام 1981م، كان صاحب الدور البارز في الإعداد لقتل الرئيس المصري أنور السادات في وقت لاحق، ويعتبر كتابه هذا الأساس الفكري الأول لتنظيم الجهاد الذي ظهر في مصر عام 1966م. وقد أعدم مُحَمَّد مع خالد الإسلامبولي وإخوانه في سنة 1982م بسبب عملية الاغتيال الناجحة تلك وباعتبار كتابه هذا دليلا هاما ضده في القضية. ما يعكس درجة رسوخ المفاهيم التي كان يحملها الكاتب ثم انعكست تطبيقا واقعا يؤكد على إيمانه بما خط رحمه الله.

ويعتبر كتاب مُحَمَّد فرج باكورة الأفكار الجهادية الشفهية ضم إليها كل أقوال العلماء التي يستدل بها أهل الجهاد ليخرج بخلاصة تتناسب ومقاييس الفكر الجهادي في ذلك الوقت.

المقدمة

سلط الكاتب الضوء في مقدمته على درجة إهمال علماء العصر وتجاهلهم لفريضة الجهاد في سبيل الله رغم ما تحمله من أهمية وخطورة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستقبل

هذا الدين وعودة صبح الإسلام من جديد. وأشار فيه إلى ضرورة إزالة الطواغيت من هذه الأرض بقوة السيف وقدم الأحاديث التي تعضد طرحه. كان من بينها خطاب رسول الله ﷺ لطواغيت مكة حينما قال: (استمعوا يا معشر قريش ، أما والذي نفس مُحَمَّد بيده لقد جئتكم بالذبح) فرسم رسول الله ﷺ بهذا الخطاب الطريق القويم الذي لا جدال فيه ولا مداهنة مع أئمة الكفر وقادة الضلال وهو في قلب مكة.

فريضة إقامة الدولة الإسلامية

تطرق بعد ذلك الكاتب إلى واجب إقامة الدولة الإسلامية وإعادة الخلافة التي بشر بها رسول الله ﷺ ، مبينا بأنه واجب على كل مسلم أن يبذل قصارى جهده لتنفيذه وأسند طرحه بأحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ تبشر بتمكين المسلمين في آخر الزمان. كما هو الحال مع حديث فتح القسطنطينية الذي تحقق الفتح الأول فيه على يد مُحَمَّد الفاتح العثماني وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله ولا بد ولتعلمن نبأه بعد حين.

وبسط الكاتب المبشرات بعودة الإسلام في العصر الحالي ليمد هذه الصحوة الإسلامية وينبئ أن لهم مستقبلاً باهراً من الناحية الاقتصادية والزراعية ..

وأما اليائسين فيرد عليهم الكاتب بحديث النبي ﷺ عن أنس رضي الله عنه : (اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعت هذا من نبيكم عليه الصلاة والسلام)[2] .. كما ذكّر بأحاديث المهدي الذي يظهر في آخر الزمان ويملأ

[2] رواه الترمذي وقال حسن صحيح

الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجواراً وبشرى الله لطائفة من المؤمنين بقوله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) والله لا يخلف الميعاد.

وخلص الكاتب إلى أن المسلمين أجمعوا على فرضية إقامة الخلافة الإسلامية، وأن إعلان الخلافة يعتمد على وجود النواة وهي الدولة الإسلامية ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية فعلى كل مسلم السعي لإعادة الخلافة بجد لكيلا يقع تحت طائلة الحديث ، والمقصود بالبيعة بيعة الخلافة .

دار الإسلام ودار الكفر

وفصل الكاتب الفرق بين دار الإسلام ودار الكفر، مستدلا بفتوى الإمام أبو حنيفة في أن دار الإسلام تتحول إلى دار كفر إذا توفرت ثلاث شروط مجتمعة : الأول: أن تعلوها أحكام الكفر ، والثاني: ذهاب الأمان للمسلمين ، والثالث: المتاخمة أو المجاورة .. وذلك بأن تكون تلك الدار مجاورة لدار الكفر بحيث تكون مصدر خطر على المسلمين وسبباً في ذهاب الأمن . وأكد اعتمادا لفتاوى العلماء الثقات أنه إذا كانت الأحكام التي تعلوها هي أحكام الإسلام (فهي دار الإسلام) وإن كانت الأحكام التي تعلوها هي أحكام كفر (فهي دار كفر) ..

الحكم والحاكم

وخصص الكاتب فقرة خاصة بالحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله مدعما طرحه بأدلة من آيات وأحاديث تؤكد كفر من لم يحكم بما أنزل الله، وبفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك.

وقد وصف الكاتب حكام المسلمين في هذا العصر بالمرتدين، الذين تربوا على موائد الاستعمار .. سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهوينة ـ فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء وإن صلى وصام وأدعى أنه مسلم ، وأسند قوله بفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية وقول الله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) .. وهذه الآيات نزلت في أهل الطائف لما دخلوا في الإسلام والتزموا بالصلاة والصيام ولكن امتنعوا عن ترك الربا فبيّن الله لهم أنهم محادون له ولرسوله إذا لم ينتهوا عن الربا ، فإذا كان هؤلاء محاربين لله ورسوله يجب جهادهم فكيف لمن يترك كثيراً من شعائر الإسلام أو أكثرها كالتتار ، ملخصا أن كل من حرموا شيئا من شرائع الإسلام فإنهم يقاتلون عليها حتى يكون الدين كله لله.

وقدّم الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم مستنتجا أن صفات التتار هي نفس الصفات لحكام العصر هم وحاشيتهم الموالية لهم الذين عظّموا أمر الحكام أكثر من تعظيمهم لخالقهم.

وقد سلّط الضوء أيضا على أهمية تناول مجموعة فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية في عصرنا هذا، لأنها تقدم حكما واضحا بحق هؤلاء الحكام وهذه الديار بما في ذلك حكم إعانتهم ومساعدتهم التي هي من باب المحرمات في دين الإسلام، وما يترتب عن ردتهم من أحكام تخص أموالهم وقتالهم الواجب.

ويتعمّق الكاتب في قضية قتالهم على اعتبارهم صائلين معتدين على المسلمين في أنفسهم وأموالهم وحرمهم وأنهم من شر البغاة ولا شبهة لهؤلاء المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فساداً الخارجين عن شرائع الدين.

ومع هذا الحجم من الضبط للأحكام يبيّن لنا الكاتب حكم من والاهم ضد المسلمين مستشهدا بقول شيخ الإسلام ابن تيمية (وكل من نفر إليهم من أمراء العسكر وغير الأمراء فحكمه حكمهم وفيهم من الردة عن شرائع الإسلام بقدر ما ارتد عنه من شرائع الإسلام وإذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين .. فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله قاتلا للمسلمين). كما فصل أكثر في حكم من يخرج للقتال في صفهم مكرها، فإنه لا ينضم إليهم طوعا من المظهرين الإسلام إلا منافق أو زنديق أو فاسق فاجر ومن أخرجوه معهم مكرها وهذا الأخير يبعث على نيته ونحن علينا أن يقاتل العسكر وجميعه إذ لا يميز المكروه من غيره .. بحسب فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية التي فيها تفاصيل أطول ساقها الكاتب في فقرته.

أراء وأهواء

وتحت عنوان جامع أراء وأهواء، أورد الكاتب طرق الإصلاح التي تتبناها التيارات الإسلامية غير الجهادية وخص كل واحدة منها بنقد ورد ، بما في ذلك القائلين بالإصلاح عبر الجمعيات الخيرية أو القائلين بأن الحل يكون بكثرة الذكر والدعاء والقيام بالعبادات وتربية المجتمع على هذا، أو برأي بعضهم في أنه بالتغلغل في المناصب والتخصصات الهامة في الدولة عبر الانتخابات وغيرها ثم رأي القائلين بالتوسع في الدعوة الإسلامية وتكوين قاعدة عريضة من الإسلاميين، ثم رأي القائلين بالهجرة للصحراء أو الجبال وتكوين مجتمع مسلم منعزل، ثم رأي القائلين بأن الإصلاح الإسلامي يتم عبر الانشغال بطلب العلم ثم لينتهي بترجيح رأيه الخاص بدليله الحاسم.

الخروج على الحاكم

سلط الكاتب الضوء على ضرورة أن يخرج المسلمون على الحاكم الكافر، واستدل بفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك.

العدو القريب والعدو البعيد

ورد الكاتب على من يقولون بأولوية تحرير القدس ومحاربة الصهاينة مرجحا وجوب قتال العدو القريب لأن حكام العالم الإسلامي في رأيه هم سبب وجود الاستعمار الصهيوني وغيره في بلاد المسلمين. مع العلم أن القتال يجب أن يكون تحت راية

مسلمة وقيادة مسلمة ولا خلاف في ذلك. وخلص إلى أنه لا شك في أن ميدان الجهاد هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام الإسلامي الكامل ومن هنا تكون الانطلاقة.

الرد على من يقول أن الجهاد في الاسلام للدفاع فقط

كما رد على من قال أن الجهاد في الإسلام للدفاع وأن الإسلام لم ينشر بالسيف مؤكدا بأن القتال في الإسلام هو لرفع كلمة الله في الأرض سواء هجوما أو دفاعا .. والإسلام انتشر بالسيف ولكن في وجه أئمة الكفر الذين حجبوه عن البشر ، وبعد ذلك لا يكره أحد .. فواجب على المسلمين أن يرفعوا السيوف في وجوه القادة الذين يحجبون الحق ويظهرون الباطل وإلا لن يصل الحق إلى قلوب الناس.

آية السيف

وتعمق في هذا المقام في تفسير آية السيف وهي قول الله سبحانه وتعلى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ..) [التوبة 5] ، ثم تفسير الآية (فإذا لاقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء) [محمد 4].. وهي أشد على المشركين من آية السيف ..

مواقف المسلمين في القتال

وعن حالة الضعف التي تعيشها الأمة أوضح الكاتب أن جيوش المسلمين على مرّ العصور كانت قليلة العدد والعدة وتواجه في كل مرة جيوشاً أضعافهم ذلك أن وعد الله بالنصر دائم ما دامت السموات والأرض.

الرد على شبهة العصر المكي

وعلى الذين ترخّصوا في ترك الجهاد بحجة أننا في مجتمع مكّي رد الكاتب معتمدا على آية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) موضحا أنها نسخت كل هذه الأفكار النمطية بحجة أننا مكيون فنحن لا نبدأ كما بدأ النبي ﷺ ولكن نأخذ بما انتهى به الشرع ..

القتال الآن فرض على كل مسلم

ويبرز الكاتب فرضية القتال اليوم بتأصيل شرعي يعتمد على الآيات والأحاديث كقوله تعالى (كتب عليكم القتال)، وليجيب بعد ذلك على سؤال: متى يكون الجهاد فرض عين.

ثم شخّص الكاتب حال الأمة فوضّح أن العدو اليوم يقيم داخل الأقطار الإسلامية وهو يمتلك زمام الأمور ويقصد بذلك الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين مرجحا أن جهادهم فرض عين، هذا بالإضافة إلى أن الجهاد الإسلامي اليوم يحتاج إلى

قطرة عرق كل مسلم. أي أنه جهاد لا يحتاج لاستئذان من الوالدين في الخروج للجهاد كما قال الفقهاء فمثله كمثل الصلاة والصوم.

مراتب الجهاد وليس مراحل الجهاد

كما رد على من جعل الجهاد مراحل، موضحا أن من يدرس السيرة يجد أنه عندما ينادي منادي الجهاد كان الجميع ينفر في سبيل الله حتى مرتكبي الكبيرة ، وحديثي العهد بالإسلام وقدم في ذلك الأدلة من سيرة الرسول ﷺ كقصة ابن محجن الثقفي الذي كان يدمن الخمر وبلاؤه في حرب فارس مشهور كما بيّن أن الحديث الذي ذكره ابن القيم (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) .. قيل ما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس ، بأنه حديث موضوع.

خشية الفشل

رد آخر متين جاء في كتاب المهندس مُحَمَّد فرج، حول شبهة قيام الدولة ثم انهيارها، وأوضح أن قوانين الإسلام ليست قاصرة ولا ضعيفة عن إخضاع كل مفسد في الأرض خارج عن أمر الله .. وأن (المنافقون) إذا رأوا القوة في صف الإسلام سوف يعودون مذعنين فلا ننخدع لهذه الأصوات فإنها سرعان ما تخمد وتنطفئ ، وموقف المنافقين سوف يكون موقف كل أعداء الإسلام ويقول الله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم) .

القيادة

أما عن عدم وجود قيادة تقود مسيرة الجهاد كأمير أو خليفة فيرى الكاتب أن من ينادي بهذه الحجة يخالفون وصية الرسول ﷺ الذي يحض المسلمين في أحاديثه على تكوين القيادات، فالقيادة أمر يظهره المسلمون بأيديهم لا ينتظرونه. فينبغي أن تكون للأحسن إسلاماً وللأقوى والأمر نسبي.

وخلص في هذه الفقرة إلى أنه آن الأوان البدء وبكل جهد في تنظيم عملية الجهاد لإعادة الإسلام لهذه الأمة وإقامة الدولة واستئصال طواغيت لا يزيدون عن كونهم بشر لم يجدوا أمامهم من يقنعهم بأمر الله سبحانه وتعالى.

مسائل متفرقة

مسائل أخرى تناولها الكاتب كمسألة البيعة على القتال والموت والتحريض على القتال في سبيل الله وعقوبة ترك الجهاد الذي يُعدّ السبب فيما يعيش فيه المسلمين اليوم من ذلٍّ ومهانةٍ وتفرّقٍ وتمزّقٍ فقد صدق فيهم قول المولى عزّ وجل (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذ قيل لكم انفروا في سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل {38} إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شئ شهيد{39}) [التوبة] .

وقول رسول الله ﷺ (لئن تركتم الجهاد في سبيل الله ، وأخذتم بأذناب البقر وتبايعتم بالعينة ، ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه)[3] ، ولا يجب على مسلم أن يرضى أن يكون الآن في صفوف النساء كما أخبر رسول الله ﷺ أن جهادهم في الحج والعمرة .

وتحت عنوان منفرد : شبهات فقهية والرد عليها، كمواجهة الكافر وفيهم المسلم، استعان الكاتب بفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية في تفصيل الحكم فيها.

أسلوب القتال

من جهة أخرى قدم المهندس عرضا لأسلوب القتال المناسب بعد الحديث عن فنون القتال في الاسلام، في غزوة الأحزاب وبالكذب على الأعداء مسلّطا الضوء على تخطيطات إسلامية وخدع إسلامية وخدع قتالية تمضي أحكامها على كثير من المسلمين كسرية مقتل كعب بن الأشرف وسرية عبد الله إلى أبي سفيان وقصة نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب.

كما تناول الكاتب أيضا مسألة جواز انغماس المسلم في صفوف الكفار إن كان في ذلك مصلحة للمسلمين ، مستندا لفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

[3] رواه أحمد

وتحت عنواين منفردة تحدث عن الدعوة قبل القتال وجواز تبييت الكفار ورميهم وإن أدى إلى قتل ذراريهم ومسألة قصد استهداف النساء والرهبان والشيخ بالقتل ومسألة الاستعانة بمشرك ومسألة جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها.

أيضا تحت عنوان منفرد تحدث الكاتب عن تنظيم الجيش المسلم واستحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو وكذا أدعية القتال، وقد كان من أدعيته ﷺ في القتال (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم).[4]

الخاتمة

كما لفت الكاتب الانتباه في خاتمة كتابه لسنام الأمر كله، ألا وهو الإخلاص في الجهاد في سبيل الله، وبسط في ذلك الأحاديث المهمة في هذا الباب. كما نبّه أيضا لضرورة تجاوز المخلفين، فإن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصحة تصمد في الكفاح الطويل الشاق والصف الذي يتخلله الضعاف والمسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونهم في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب فالذين يضعفون ويتخلفون .. يجب نبذهم بعيدا عن الصف وقاية لهم مع التخلخل والهزيمة والتسامح مع هؤلاء جناية على الصف كله. مسندا قوله لفتاوى الفقهاء في تنقية الصف كأقوال الشافعي وابن قدامة المقدسي ..

ثم مسك الختام، تحدث الكاتب عن غرور الفقيه كيف يمنع تأميره، فلقادة جماعات المسلمين هذا اليوم أن يقولوا لكل داعية يتطلع للسمعة والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة مثل الذي قال عمر لأبي عبيد، ويفهموه أنه : قد أخطأت بداية الطريق إلى

[4] صحيح مسلم

مرادك فمررت بديار دعوة التواضع والبذل والالتزام الخططي وهذه الطريق على ديار أشكالك فالحق بهم.

هذا الكتاب كان غزيرا بالأجوبة والردود على الكثير من الأسئلة والشبهات في باب الجهاد، معتمدا على تأصيل شرعي متين وأحاديث وآيات واضحة المعاني والتفاسير، وتبقى مطالعته مغنم لمن أراد أن يستزيد، فرحم الله كاتبه وأسكنه فسيح جناته ونفع بكتابه وفكره المستنير.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كتاب لماذا أعدموني

لسيد قطب

لماذا أعدموني؟!

حين تكتب الروح المثقلة بالألم ومسؤولية الأمانة!

نغوص اليوم في ثنايا وثيقة العلامة سيد قطب بعنوان "لماذا أعدموني؟!"، وهو تأليف اختلف كثيرا عن بقية مؤلفات سيد وبشكل أثار جدلا واسعا لدى أنصاره فور خروجه للنور، ذلك أنها الوثيقة التي كتبها الكاتب السجين بخط يده ولكن تحت وطأة التحقيق القاسي، فلم تكن مسترسلة ماتعة كما هي عادة سيد في التأليف حين يطلق العنان لفكرته وينظمها بشكل لآلئ لامعة في جيد متصل بمتانة تجذب لها ذهن القارئ فلا ينفك عنها تعلقا واستفادة، بل جاءت تظهر عليها أمارات الإجهاد الفكري والضغط النفسي حين ظهرت على شكل إجابات محددة على أسئلة المحققين وخدم الطاغوت الذين أذاقوا سيد ألوان الضرّ والأذى، ثم جمعوها ونشروها بعد أن عمدوا إلى قص كل ما يفضحهم ويؤذي كبرهم، كشهادة سيد حول ما يتعرض له من تعذيب وعدوان، وتركوا ما يعكس إنسانية خاوية جوفاء لعلهم يستغفلون بها الجماهير التي تشاهد بشاعة جرائمهم بحق سيد وصحبه لا لتهمة إلا الإسلام!

ولكن رغم ذلك المكر، جاءت هذه الوثيقة لتأكد أن سيد قطب لا زال صاحب القول الذي يصدقه الفعل، وكما طالما ترددت كلماته في فضاء كتاباته الخالدات، فإن كانوا تمكنوا من جسده الفاني فإنهم لن يقدروا أبدا على روحه المحلِّقة، وهذه

كانت كافية لدفع موجات الحنق لدى أعدائه لتبلغ سقف الإجرام فيتجرأوا على إعدامه ضاربين بعرض الحائط جميع المناشدات والنداءات من رموز الأمة وعلماءها لأجل حفظ نفس مسلمة من موت بغير حق!

لقد أعدموا سيد لأنه المسلم الأبي الذي صرخ في وجه الطغاة باعتزاز قائلا:

"إنه آن أن يقدم إنسان مسلم رأسه ثمناً لإعلان وجود حركة إسلامية وتنظيم غير مصرح به قام أصلاً على أساس أنه قاعدة لإقامة النظام الإسلامي، أياً كانت الوسائل التي سيستخدمها لذلك. وهذا في عرف القوانين الأرضية جريمة تستحق الإعدام!" .

سبب إعدام سيد قطب

لقد أبرز سيد قطب سبب إعدامه مؤكدا على أن الأسير المسلم لا ينبغي له أن يدل على ما وراءه من جند الإسلام ولا يكشف مقاتل المسلمين وعوراتهم ما أمكنه فبقي متمسكا بتلك الحكمة الثاقبة والبصيرة النيّرة في مواجهة طغيان الظالم حتى وهو تحت وطأة الجلاد.

الكاتب الذي زاول الكتابة أربعين سنة قدم سردا تاريخيا لنشاطه في حركة الإخوان المسلمين منذ الأيام الأولى التي أعقبت دخوله في الجماعة إلى تلك الحوادث الجسام التي عرفتها الحركة الإخوانية في تلك الحقبة من الزمن.

مسيرة سيد منذ انضمامه للأخوان المسلمين

وكما جاء في تلخيصه فقد التحق سيد بالإخوان في سنة 1953م إلى سنة 1962م، وكان الدافع له للانضمام إليهم ما شهده خلال سفره إلى أمريكا في بعثة لوزارة المعارف عندما قتل حسن البنا في سنة 1949م. وأثارت موجة الفرحة والشماتة التي أبداها الأمريكيون بمقتل الإمام ثورة وجدان في داخل سيد الذي أدرك درجة إغاظة هذه الجماعة للصهيونية والاستعمار الغربي.

ثم في نفس هذه السنة نشر لسيد كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) مصدراً بإهداء هذه الجملة: (إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديداً كما بدأ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم .. الخ) وهي الصيغة التي أشار إليها سيد في هذا التأليف على أنها كانت صيغة الإهداء المشار إليه، لكنها لم تكن مطابقة تماما للإهداء الأصلي في الكتاب وإن كانت تحمل ذات المعاني، ما يعكس ربما درجة الإرهاق الفكري مرة أخرى الذي كان يعاني منه سيد مع محققين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة..

وقد فهم الإخوان في مصر أنه يعنيهم ولكن لم يكن الأمر كذلك حسب تعليق سيد وأعقب ذلك تبنيهم للكتاب والاهتمام بكاتبه الذي التقيهم بعد عودته في عام 1950م ومن هناك توطدت العلاقة مع شباب الجماعة في وقت انغمس فيه سيد مع صراع شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة والإقطاع والرأسمالية وأصدر كتابين في الموضوع غير مئات المقالات في صحف الحزب الوطني الجديد والحزب الاشتراكي ومجلة الدعوة التي أصدرها الأستاذ صالح عشماوي ومجلة الرسالة وكل جريدة أو مجلة قبلت أن تنشر له، بلا انضمام لحزب أو

جماعة معينة، وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة 23 يوليو سنة 1952م. وقد فصّل سيد ظروف انضمامه بالفعل سنة 1953م إلى جماعة الإخوان المسلمين في هذا الفصل من الوثيقة الذي كان على رأس الفصول التالية.

رؤية سيد قطب التي دفعته للتصميم على ضرورة العمل لحركة إسلامية

كما تناول طبيعة الوظائف التي كان يغطيها داخل الجماعة، لينتهي نشاطه إلى اعتقاله مع العديد من الإخوة النشطاء، وليدرك سيد بعد خروجه من السجن أن المسألة أكبر بكثير مما يبسطها الذين ينظرون لما حدث على أنه مجرد تطور، إنها تتعلق بالمخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية في تدمير المقومات الأساسية للعناصر البشرية في المنطقة بحيث تصبح هذه الملايين حطاماً منهاراً لا يملك المقاومة حتى لو وضعت في يده أقوى الأسلحة. فالرجال هم الذين يحركون الأسلحة وليست الأسلحة هي التي تحرك الرجال. والمجتمعات حين تنهار عقيدياً وخلقياً تصبح الملايين فيها غثاء لا يقف في وجه التيار.

هذه هي رؤية سيد للموقف والتي انطلق منها التصميم على ضرورة العمل لحركة إسلامية امتداداً لحركة الإخوان المسلمين المصادرة الموقوفة. مع الانتفاع بالتجربة وبالتجارب التي سبقتها.

مذبحة طرة

وقد سرد سيد تفاصيل مذبحة طرة التي قاسى فيها الإخوان المسلمين الأمرين وسفكت دمائهم عدوانا وظلما بتمثيلية ضعيفة الحبكة من السلطات المصرية آنذاك، وكشف عن درجة المكر الذي كان يتربص بالفتية الذين بثوا الرعب في نفس

الطاغية حتى وهم نزلاء سجونه الشقية، فلم يتردد في تصفيتهم ليقتل منهم 21 ويجرح حوالي ذلك.

دراسة الحركة الإسلامية من القاعدة

ثم أشار سيد إلى ضرورة سرد الحوادث وفق خط زمني تاريخي يدرس الحركة الإسلامية التي يجب أن تبدأ من القاعدة مع التركيز على حمايتها من الصهيونية والصليبية الاستعمارية التي تقوم كلها على أساس إضعاف العقيدة الإسلامية، ومحو الأخلاق الإسلامية، وإبعاد الإسلام عن أن يكون هو قاعدة التشريع والتوجيه وذلك للوصول إلى تدمير العقائد والأخلاق، وبالتالي تدمير المقومات الأساسية للمجتمع في هذه المنطقة وإحداث انهيار يسهل معه تنفيذ تلك المخططات.. وقد خلص سيد بعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين آنذاك ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام إلى أن الحركة الإسلامية اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة. من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية – وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية– وفي الوقت نفسه توجد معسكرات صهيونية وصليبية استعمارية قوية، تحارب كل محاولة للدعوة الإسلامية وتعمل على تدميرها عن طريق الأنظمة والأجهزة المحلية، بتدبير الدسائس والتوجيهات المؤدية لهذا الغرض، ذلك بينما الحركات الإسلامية تشغل نفسها في أحيان كثيرة بالاستغراق في الحركات السياسية المحدودة المحلية، كمحاربة معاهدة أو اتفاقية، وكمحاربة حزب أو تأليب خصم في الانتخابات عليه.كما أنها تشغل نفسها بمطالبة الحكومات بتطبيق النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية والغيرة عليها، وعن الأخلاق الإسلامية..

فصل البحث عن السلاح والمال

وتحت فصل بعنوان "البحث عن السلاح والمال"، شرح سيد كيف بدأت خطوات الجماعة تتجه إلى توفير الأسلحة وإجراء الاتصالات اللازمة لذلك. واستهل فصله بالتأكيد على الخلاصات المهمة التي وصل إليها خلال فترة سجنه، والتي تؤكد على أن:

1. المجتمعات البشرية بجملتها قد بعدت عن فهم وإدراك معنى الإسلام ذاته. ولم تبعد فقط عن الأخلاق الإسلامية، والنظام الإسلامي، والشريعة الإسلامية.

فأية حركة إسلامية يجب أن تبدأ من إعادة تفهيم الناس معنى الإسلام ومدلول العقيدة وهو أن تكون العبودية لله وحده. سواء في الاعتقاد بألوهيته وحده، أو تقدير الشعائر الشعائر التعبدية له وحده، أو الخضوع والتحاكم إلى نظامه وشريعته وحدها.

2. الذين يستجيبون لهذا الفهم يؤخذ في تربيتهم على الأخلاق الإسلامية في توعيتهم بدراسة الحركة الإسلامية وتاريخها وخط سير الإسلام في التعامل مع كل المعسكرات والمجتمعات البشرية، والعقبات التي كانت في طريقه والتي لا تزال تتزايد بشده ، وبخاصة من المعسكرات الصهيونية والصليبية الاستعمارية.

3.لا يجوز البدء بأي تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل ومن الوعي الذي تقدم ذكره.

4. ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية هو نقطة البدء. ولكن نقطة البدء هي نقل المجتمعات ذاتها – حكاما ومحكومين – عن الطريق السالف إلى المفهومات الإسلامية الصحيحة – وتكوين قاعدة إن لم تشمل المجتمع كله فعلى الأقل تشمل عناصر وقطاعات تملك التوجيه والتأثير في اتجاه المجتمع كله إلى الرغبة والعمل على إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية.

5. وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى، ولكن عن طريق تغير في تصورات المجتمع كله – أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله – وفي قيمه وأخلاقه والتزامه بالإسلام يجعل تحكيم نظامه وشريعته فريضة لا بد منها في حسهم!

6. في الوقت ذاته تجب حماية هذه الحركة، وهي سائرة في خطواتها هذه بحيث إذا اعتدي عليها وعلى أصحابها يرد الاعتداء. وما دامت هي لا تريد أن تعتدي ، ولا أن تستخدم القوة في فرض النظام الذي تؤمن بضرورة قيامه فيجب أن تترك تؤدي واجبها وألا يُعتدى عليها وعلى أهلها . فإذا وقع الاعتداء كان الرد عليه من جانبها.

قيادة سيد قطب للإخوان وخطة رد الاعتداء عن الحركة الإسلامية

كذلك شرح سيد الطريقة التي دفعت بها الجماعة كي يصبح سيد قائدا لها في وقت كان يرفض هو هذا المنصب وبسط مجمل أسبابه لهذا الرفض والذي انتهى بأن تحمل قيادة الجماعة في نهاية المطاف.

كما أفرد فصلا خاصا بخطة رد الاعتداء على الحركة الإسلامية بسط خلالها أهداف الصهيونية في هذه المرحلة من تدمير المنطقة، أولاً: من ناحية العنصر البشري بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي.. وثانياً: من ناحية تدمير الاقتصاد .. وأخيراً التدمير العسكري.

وقد اعتقل سيد مرة أخرى بعد المناقشات التي وصلت إلى قبول فكرة تدمير بعض المنشآت في القاهرة لشل حركة الأجهزة الحكومية عن المتابعة لكن كل تلك الخلاصات العملية لم تتعد التفكير النظري ذلك أنه لم تكن لدى الجماعة إمكانيات فعلية للعمل وكانت تعليمات سيد لهم ألا يقدموا على أي شيء إلا إذا كانت لديهم الإمكانيات الواسعة..

اتصال إخوان مصر بالإخوان في الخارج

وفي فصل منفرد تحدث سيد عن اتصالاتهم بالإخوان في الخارج كإخوان العراق والأردن والسودان. وفضلا عن تفاصيل هذه الاتصالات سلّط سيد الضوء على قضية الانتخابات خلال تعليق له على زيارة أخ سوداني والذي أبدى تفاؤله الكبير بقرب قيام حكم إسلامي في السودان نتيجة للانتخابات التي كانت لم تجر بعد، فكان تعليق سيد أن قيام حكم إسلامي في أي بلد لن يجئ عن مثل هذه الطرق. وأنه لن يكون إلا بمنهج بطيء وطويل المدى، يستهدف القاعدة لا القمة، ويبدأ من غرس العقيدة من جديد، والتربية الإسلامية الأخلاقية. وأن هذا الطريق الذي يبدو بطيئاً وطويلاً جداً هو أقرب الطرق وأسرعها.

كما لاحظ سيد شدة انغماس إخوان سورية بالذات منذ نشأة الجماعة هناك وانغماسها في الأحداث السياسية وقلة التفرغ للتربية.

ويعتقد سيد قطب باستقراء الأحداث الماضية أن ضرب الإخوان والحركات الإسلامية لا يتعلق فقط بعوامل محلية، ولكنه يتعلق بمخططات صهيونية وصليبية استعمارية مدربة على إنشاء الظروف وتكييف الأحداث بحيث تصبح الضربة كأنها بسبب عوامل محلية.

وخلال استطراده تناول سيد قصة زيارة السيدة خيرية الزهاوي بنت الأستاذ الشيخ الزهاوي كبير علماء العراق حين حلت بمصر للاستشفاء واستشارة الأطباء وفي نفس الوقت جاءت تحمل تحيات وتهنئة عمها الأستاذ أمجد، وفرحه بخروج سيد بعد قلقه عما كان يترامى إليه من أخبار سوء صحته في السجن وإشاعات عن موته أحياناً. وخلالها تناول الحديث عن الوساطة التي قام بها مع الرئيس عبد السلام عارف عند جمال عبد الناصر والتي توّجت بالنجاح في نهاية المطاف.

الإسلام نظام حياة كامل

وتحت عنوان "الإسلام نظام حياة كامل"، تناول سيد قطب الحديث عن العلاقات الداخلية الأخرى سواء مع الإخوة داخل السجون أو خارجها، وهي العلاقات التي دار فيها الحديث عن الجماعة والحركة من قريب أو من بعيد.

وسلط خلالها الضوء على المعسكرات لقادة الشباب غلبة التوجيه الشيوعي والاتجاه الانحلالي الخلقي على ما ينشر في الصحف بوجه عام وخاصة مجلة "الطليعة" ومجلة "الكاتب" ومجلة "روز اليوسف" ومجلة "صباح الخير" مما يوجد جواً وبيئة فكرية لا يقف في وجهها التوجيه التقليدي الهزيل القليل الذي يتمثل فيه الفكر الإسلامي. ومما يجعل الكفتين غير متساويتين، ويجعل الغلبة الحقيقية للتوجيه المادي الإلحادي والتوجيه الانحلالي الأخلاقي.

لقد استغرق الحديث عن العلاقات والاتصالات حيزا كبيرا من حديث سيد قطب في هذه الوثيقة وتناول حتى العلاقات خارج محيط الإخوان.

وكشف خلالها عن معاناته الصحية في السجن والزيارات المختلفة من خارج الجماعة كزيارة الحاج حسين صدقي وأهل بيته، والحاجة زينب الغزالي والتي التقى بها في بيت الحاج صدقي، وكذا زيارته للشيخ الأودن والتي رافقه فيها أخوه مُحَمَّد قطب.

ويشعر القارئ خلال سرد سيد قطب لهذه التفاصيل أنه بحق يعيش لحظات التحقيق المرهقة.

ملاحظات قطب على تنظيم الإخوان

كما لفت سيد أكثر من مرة الانتباه إلى أن محاولة تذكر الأسماء تسبب له إجهاداً شديداً، وتستغرق وقتاً طويلاً يمنعه عن المضي في التقرير للوصول إلى الوقائع الأخيرة. لدرجة استغرق تذكر هذه الأسماء حوالي ساعتين.. ما يدفعه لطلب الاستعانة بذاكرة شهود عيان آخرين حضروا هذه الوقائع.

إن انشغال سيد بالتنظيم كان يوازيه عدم الرغبة في انضمام أي أحد جديد حتى يتم تكوينه على المستوى الذي يريده. ولا حتى من شباب الإخوان الموجود بالفعل- بل وإنه كثيراً ما كان يقول لرؤساء التنظيم: أنهم تعجلوا بالتنظيم كما تعجلوا في ضم عدد كبير إليه لا تمكن تربيتهم. ثم لم هو بهذه السعة والكثرة! والأمر في نظره كان يجب أن يبدأ بآحاد وأفراد. فسيد كان يرى أن التنظيم لم يتم إعداده كما يريد، وأنه لو استطاع لأنقص منه.

بعد كم كبير من التفاصيل عن الزيارات والعلاقات والنقاشات، تناولها سيد للجواب على سؤال المحققين حول أوجه نشاطه في الحركة الإسلامية منذ انضمامه لصفوف

الإخوان، ختم سيد حديثه عن حقيقة أن العنف الذي عومل به الإخوان سنة 1954م هو الذي أنشأ فكرة الرد على الاعتداء إذا تكرر بالقوة وأن تدمير حركة الإخوان المسلمين والحركات الإسلامية المماثلة في المنطقة هدف صهيوني وصليبي استعماري. وأنه لو استخدم في معاملة حركة الإخوان أسلوب آخر غير ما حدث لأمكن تدمير المخططات الصهيونية والصليبية الاستعمارية في المنطقة بدلاً من تدمير الحركة الإسلامية التي مهما قيل في أخطائها فإنها وقفت في وجه حركة الإلحاد المادي والانحلال الأخلاقي التي كانت قد أخذت في المد بعد حركة أتاتورك اللادينية في تركيا وتأثيرها في منطقة الشرق الأوسط. وأن موجة من الانحلال الأخلاقي والاتجاه الإلحادي أعقبت ضرب الإخوان في سنة 1954م وستعقب ضربهم الأخير موجة أشد لا يعلم إلا الله مداها.

هل أنتم وحدكم المسلمون

وأجاب سيد على سؤال تكرر على مسمعه يقول: وهل أنتم وحدكم المسلمون؟ ليجيب أن الإسلام شيء أكبر من هذا كله .. إنه نظام حياة كاملة، وإنه لا يقوم إلا بتربية وتكوين للأفراد، وإلا بتحكيم شريعة الله في حياة الناس بعد تربيتهم تربية إسلامية. وإنه ليس مجرد أفكار تنشر أو تذاع بدون الأخذ في تطبيقها عملياً في التربية أولاً وفي نظام الحياة والحكم أخيراً.

وقال سيد قطب في ختام سطوره التي خطها بروحه المثقلة بالألم ومسؤولية الأمانة:"إن الإسلام لا يقوم ولا يوجد في بلد ليس فيه حركة تربية ثم قيام نظام إسلامي يحكم بشريعة الله في النهاية. هذه هي النهاية كلمات رجل يستقبل وجه الله يخلص بها ضميره ويبلغ بها دعوته إلى آخر لحظة، والسلام على من اتبع

الهدى".

ليختم سيد قطب حديثه بتوقيع يدعو للتأمل، نعم فقد كتب ما كتبه وهو في السجن الحربي في مصر في 22 أكتوبر سنة 1965م.

♦♦♦♦♦♦♦

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية

إن دراسة تاريخ الجزيرة العربية يحتاج لبحث وتنقيح في المعلومات والوثائق التاريخية التي نجت من التلف وتتسم بالمصداقية، ولا شك أن الوثائق البريطانية تعتبر المرجع الأكثر غزارة بالأخبار والأحداث التي عرفتها الجزيرة منذ بداية القرن العشرين موثقة توثيقًا يستحق الاهتمام.

وتعود أهمية هذه الوثائق من جهة أولى لكون بريطانيا كانت تمثل اللاعب الأساسي الذي أثر في تغيير خريطة العالم الإسلامي بشكل مباشر وسريع، فضلًا عن علاقتها الوطيدة بالساسة العرب في الجزيرة العربية الذين مكنوها من تمرير مكرها الكبار في المنطقة.

ومن جهة ثانية تمثل هذه الوثائق كنزا تاريخيا يسمح بفهم خلفيات الأحداث الكبرى التي وقعت في قلب العالم الإسلامي ويشرح كيفية رسم خريطة المنطقة مطلع القرن العشرين.

محتوى الوثائق البريطانية

وقد تميزت هذه الوثائق باحتوائها لكمّ هائل من المعلومات المترجمة التي كشفت النقاب عن سياسة بريطانيا واستراتيجيتها التي اتبعتها في إدارة الصراع منذ بداية سنة 1914م. وهي الفترة التي عرف العالم خلالها الحرب العالمية الأولى وتغيرت على إثرها الخريطة وموازين القوى بعد أفول نجم الدولة العثمانية.

كما نجد في هذه الوثائق جميع المراسلات والتقارير من العمال البريطانيين الذين كانت لهم صلات مباشرة مع العالم الإسلامي ويتواصلون مع القادة والحكام العرب على اختلاف مشاربهم.

الكشف عن الوثائق بعد سرية متعمدة

لم يعرف محتوى هذه الوثائق ردحا من الزمن بسبب صدور قانون يقر بكمون هذه الوثائق في أدراج الحكومة البريطانية خمسين سنة كاملة، باعتبارها وثائق يُحَتّم حفظها في سرية تامة.

ولكن في سنة 1967م تم تقليص مدة الكمون والحفظ هذه لثلاثين عاما. ما اعتبر فرصة ذهبية للباحثين والمؤرخين الذين انكبوا على هذه الوثائق لدراستها وتنقيحها.

الجزيرة العربية في الوثائق

كان للجزيرة العربية نصيب الأسد في هذه الوثائق ومن قبل أن تظهر ” المملكة العربية السعودية “ سنة 1932م. حيث تقدم لنا هذه الوثائق حيثيات نشأة هذه الدولة التي كانت مناطقها تخضع شكليًا للنفوذ العثماني في حين تتقاسم القبائل والعائلات النفوذ الفعلي والسيطرة على الأرض، فالأشراف كانوا يحكمون الحجاز وآل سعود كانوا يحكمون نجد والأدارسة كانوا يحكمون عسير وآل رشيد كانوا يحكمون حائل والجوف.

الوثائق في كتاب

ومن المؤرخين الذين اغتنموا فرصة ظهور هذه الوثائق للعلن، كان الدبلوماسي والكاتب العراقي نجدة فتحي صفوة، الذي بذل جهدًا ملحوظًا في جمع كل ما يخص الجزيرة وضمه في صفحات متناسقة فشكل بهذا الجمع موسوعة من سبعة أجزاء اعتنى بها عناية فائقة من ناحية أساسيات البحث والتسلسل الزمني والدقة في النقل، وبالمثل تعامل مع الوثائق التي تخص العراق وأخرج موسوعة أخرى باسمها فأضحت مؤلفاته ضالة كل باحث.

تقسيم الوثائق

عمد نجدة إلى تقسيم هذه الوثائق الخاصة بالجزيرة العربية بعد ترجمة دقيقة دون أن يؤثر في مضمونها أو يبتر منه، عمد إلى تقسيمها إلى عدة أقسام، كان الأول يعتني بتاريخ نجد والحجاز في في سنتي 1914 و1915م.

وهي الحقبة التي حرضت فيها بريطانيا الشريف حسين للثورة على الدولة العثمانية واعدين إياه بمنصب الخليفة، ومن الوثائق التي شهدت لأسلوب البريطانيين الماكر في استدراج واستغفال الشريف حسن تلك الرسالة التي أرخت بتاريخ 30 أغسطس 1915م وأرسلها المندوب السامي البريطاني في مصر مكماهون، إلى الشريف جاء فيها:

"إن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة".

فبريطانيا كانت ناقمة على العثمانيين؛ لدخولهم في صف ألمانيا إبان الحرب العالمية في 1914م بجوار ألمانيا يؤكد ذلك مذكرة إستراتيجية أعدتها الدائرة السياسية

البريطانية في وزارة الهند توضح بأن المخاطر التي تخشاها بريطانيا من تصرفات العثمانيين تتمثل في:"الخوف من ثورة المسلمين في مصر والهند ضد الوجود البريطاني وإحياء فكرة الوحدة الإسلامية مجددا".

ومن ثم أوصت المذكرة بقطع دابر تلك المخاطر عبر إضعاف الحكومة المنظمة الوحيدة القادرة على إعطاء زخم لفكرة الوحدة الإسلامية آنذاك ألا وهي الحكومة التركية.

الجزء الثاني

أما الجزء الثاني فتخصص في سنة 1916م، وهي سنة الثورة العربية بامتياز، فكان حجم هذا الجزء كبيرا بحجم أحداث وتفاصيل الثورة العربية.

وفي هذا الجزء سنكتشف كيف كان مكماهون يعمد لمخاطبة "الشريف" بألفاظ التعظيم، فراسله في 10 مارس 1916م قائلا: "إلى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر، قبلة الإسلام والمسلمين، معدن الشرف وطيب المحتد، سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف، صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي، أمير مكة المعظم، زاده الله رفعة وعلاء".

فكانت استجابة الشريف للإغراءات البريطانية سريعة وأعلن الثورة على العثمانيين في 10 يونيو 1916م، تماما كما خطط لذلك مكماهون، الذي أرسل إلى وزارة الخارجية في لندن في 14 أغسطس 1916م قائلا: "إن لدينا فرصة فريدة قد لا تسنح مرة أخرى في أن نؤمّن بواسطة الشريف نفوذا مهما على الرأي العام الإسلامي والسياسة الإسلامية، وربما نوعا من السيطرة عليهما".

وفي هذه السنة أمدت بريطانيا الشريف بالمال والسلاح، وقد أحصي –خلال العام الأول فقط من ثورته– ما يصل إلى 71 ألف بندقية وأكثر من أربعين مليون طلقة، تم تزويد الشريف بها، بل الدعم اللوجستي وصل إلى حد إرسال ألف سيجارة إلى نجلي الشريف، فيصل وعلي، لكونهما المدخنَين الوحيدَين في عائلتهما.

ومن ناحية أخرى عززت بريطانيا جيش الشريف بأعداد كبيرة من الأسرى العرب التابعين للجيش العثماني، ووصلت الغطرسة والبجاحة البريطانية لدرجة أن الجنرال كلايتون في أكتوبر 1917م توجه إلى معسكر الأسرى العرب ليخطب فيهم قبل التحاقهم بالشريف قائلًا:

"هل من واجبي –أنا الإنجليزي– أن أذكركم بآل بيت علي ومعاوية والعباس بالأولياء والأبطال الذين صنعوا أمجاد العرب في العالم، بالتأكيد إن ضمائركم تقول لكم ذلك. ولكنني كرجل إنجليزي سأقول لكم التالي: إن إمبراطوريات العرب دمرت وجعلت ترابًا بالخلافات والتكاسل، وإن نير الترك كبل أعناقكم 900 عام لأنكم أتبعتم أهواءكم ولم تكونوا متحدين أبدًا. والآن بيدكم الفرصة التي إذا أضعتموها فلن يغفر الله لكم.. إن من الأفضل أن يكون المرء طاهيًا في السرية العربية من أن يكون وزيراً خاضعاً للأتراك".

وجدير بالذكر أن بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية قد تقاسمت تركة الدولة العثمانية بينها في اتفاقية سايكس بيكو في 1916م، وهي الاتفاقية التي حرص سايكس في برقية أرسلها إلى وزارة الخارجية بلندن في 17 مارس 1916م على التوصية بكتمان بنودها عن زعماء العرب.

الجزء الثالث

أما الجزء الثالث فشمل الوثائق المتعلقة بالجزيرة من كتب ومراسلات بين الجانب البريطاني وجدة والقاهرة والبصرة وبغداد ولندن والهند وعدن، على امتداد 1917 و1918م، إضافة إلى تطور العمليات العسكرية للثورة ومراسلات الملك حسين وأولاده مع المسؤولين البريطانيين.

كما احتوى هذا القسم –أيضًا– على الوثائق المتعلقة "بأمير نجد" عبد العزيز آل سعود والمراسلات معه ومع الجهات المعنية حول علاقاته بابن رشيد وبالملك حسين. ولعل أبرز ما احتواه هذا الجزء هو تلك المذكرة المفصلة للسير برسي كوكس بعنوان "علاقات بريطانيا مع ابن سعود" وتقارير مفصلة في التعامل مع عبد العزيز آل سعود.

لقد وثّقت هذه الملفات كيف عاش الشريف أحلامًا وردية بسبب الوعود من بريطانيا بأنها ستهبه حكم الجزيرة العربية والعراق والشام وفلسطين، لدرجة صاح في نجله فيصل عندما قال له:"ماذا ستفعل إذا افترضنا أن بريطانيا العظمى لم تنفذ الاتفاق في العراق؟"، قائلًا:" ألا تعرف بريطانيا العظمى؟ إن ثقتي فيها مطلقة".

ولكن أبت الحقائق إلا أن تحطم آمال الشريف، فاندلعت ثورة البلاشفة الروس في أكتوبر 1917م، ونشر البلاشفة الوثائق السرية التي عثروا عليها في مقر وزارة الخارجية الروسية بالعاصمة بتروغراد، ومن بينها اتفاقية سايكس بيكو، فوصلت أنباء الاتفاقية إلى الشريف، فبادر للاستفسار عن حقيقة الأمر، فاستغفل كما هي عادة البريطانيين في استغفال رجلهم المدلل وتم تغييبه من جديد.

ومن تلك التبريرات السقيمة التي ابتلعها الشريف بسذاجة عجيبة قول البريطانيين:"أن البلاشفة وجدوا في وزارة خارجية بتروغراد سجلًا لمحادثات قديمة وتفاهم مؤقت وليس معاهدة رسمية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا". وصدّق الشريف تبريرات الإنجليز، وبرع في الحماقة حين هنأهم بإجرامهم بحق القدس قائلًا:" إن هذا النبأ مستلزم للفخر العظيم"؛ كونه طمع أن تكون تحت بساط ملكه!

الجزء الرابع

ثم يأتي الجزء الرابع ليحتوي على الوثائق التي عرفتها سنة 1919م، ويقدر عددها بـ 250 وثيقة بين برقية قصيرة، وكتاب شخصي أو رسمي، وتقرير قصير أو تفصيلي، ومذكرة رسمية وشبه رسمية متعلقة بهذه السنة، وهي السنة ذاتها التي عقد فيها مؤتمر الصلح في "فرساي" لإعادة رسم خريطة العالم بعد الحرب.

وهي نفسها السنة التي تفاقمت خلالها الخلافات بين الملك حسين وملك الحجاز والأمير عبد العزيز آل سعود أمير نجد، وسنجد في هذا الجزء المراسلات والتقارير التي قامت بتغطية العلاقة بين هؤلاء وبين بريطانيا أيضا، ثم قضية (الخرمة) التي أدّت إلى الحرب بينهما، وانتهت باحتلال قوات الأمير عبد العزيز آل سعود للخرمة.

ويمكن القول أن هذه القرية الصغيرة على الحدود الحجازية النجدية كان لها أثارها الخطيرة التي أدت إلى تغيير مستقبل الجزيرة العربية برمته.

ثم كشفت هذه الوثائق أيضا النقاب عن زيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى لندن وهو لا يزال في الرابعة عشر ة فقط وكذا مباحثاته مع ساسة بريطانيا، إضافة للوثائق

الخاصة باشتراكه في مؤتمر الصلح بباريس كممثل للحجاز وهناك تفاجأ بواقع السياسة الدولية والمساومات ومشكلة فلسطين ومشكلة توزيع الانتدابات.

الجزء الخامس

أما الجزء الخامس فشمل الوثائق الخاصة بسنة 1920م حين تصاعد الخلاف الهاشمي السعودي، ويحتوي هذا الجزء على المراسلات المتبادلة بين الملك حسين والمعتمد البريطاني في جدة، وبين المراجع البريطانية في جدة والقاهرة ولندن ومن جهة، وبين الملك عبد العزيز والوكيل البريطاني في البحرين والمفوّض المدني في بغداد.

كما كشفت هذه الوثائق الستار على أهم المشكلات التي واجهت الملك حسين والملك عبد العزيز؛ وهي قضية الحج. ويعد في هذه المجموعة حوالي خمس وعشرين رسالة من الملك عبد العزيز إلى الملك حسين والوكيل البريطاني وغيرهما وحوالي 20 أخرى من الملك حسين.

أضف لذلك عدة مذكرات وتقارير مهمة توضح موقف بريطانيا الحقيقي من كثير من القضايا، كمثل مذكرات كتبها الممثلون البريطانيون، أو دوائر الاستخبارات البريطانية عن حركة الإخوان والسيطرة على الشرق الأوسط في المستقبل والحالة السياسية في نجد. دون أن ننسى العديد من المذكرات والدراسات الهامة التي أعدتها وزارة الخارجية وترتبط بمستقبل المنطقة ومكوناتها.

الجزء السادس

أما الجزء السادس، فانفرد بالوثائق التي خرجت في 1922 و1921م، من بينها المراسلات المتبادلة بين الملك حسن وابن سعود، وبين الحكومة البريطانية. وكذا

الجدل الذي ثار حول مسألة حج الوهابيين إلى مكة، وتداعياتها على العلاقات النجدية ـ الحجازية، وما يخص المرحلة ما قبل توحد نجد والحجاز.

ويسلط الضوء هذا الجزء على عام 1921م حين أعلن رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل "وعد بلفور" الذي منح بموجبه إسرائيل "وطنًا" في فلسطين، وكذا الضغوط التي أدت إلى "معاهدة فرساي"، وبالتالي تقسيم فلسطين بين العرب وإسرائيل في وقت لاحق.

فاحتلت الجيوش الفرنسية سوريا، وطردت منها فيصل، نجل الشريف حسين، وعندما رفض الشريف تلك الإجراءات، وامتنع عن التوقيع على معاهدة فرساي، تخلت عنه بريطانيا ووجهت دعمها كله لأمير نجد، عبد العزيز بن سعود، الذي اجتاح الحجاز عام 1924م، ما اضطر الشريف إلى الهرب إلى العقبة ليجبره الإنجليز على مغادرتها ليعيش في منفاه الإجباري في قبرص وكانت هذه النهاية البائسة لسذاجة مهلكة.

الجزء السابع

بينما شمل الجزء السابع والأخير أهم الوثائق المتعلقة بالحجاز ونجد لسنتي 1923 و1924م كتلك المتعلقة بـ "مؤتمر الكويت" الذي عقد كمحاولة لتسوية الخلافات بين نجد والحجاز، ولكنه فشل في تحقيق ذلك الهدف، ومجمل الخلافات والتجاذبات في تلك الحقبة وكذا حصار جدة الذي دام قرابة عشرة أشهر وانتهى الأمر بخروج علي ابن الملك حسين، ودخول عبد العزيز آل سعود إلى جدة.

وسنجد في هذه الوثائق ما يتعلق بالنفط في نجد والحدود بين نجد وشرق الأردن، ومواقف الملك عبد العزيز تجاه بريطانيا والحجاز، وتضم أيضًا تقريرًا مفصلًا عن

"الأحوال الاقتصادية والمالية في الحجاز"، وتقريرًا آخر للمعتمد والقنصل البريطاني في جدة حول موضوع الاستيلاء على الطائف.

لقد كشفت هذه الوثائق الستار عن العديد من رسائل ابن سعود المتعددة للإنجليز؛ التي توضح كراهيته للشريف حسين، وكيف كان يعتبر البريطاني أقرب إليه من أخيه!

ختامًا

لقد وثقت الوثائق البريطانية تاريخًا بشعًا وقبيحًا يجدر بنا دراسته والاستفادة من أخطائه وكبائره؛ حتى نستفيد منها ونبصر أعداءنا بنظارة حقيقة، لا سذاجة مهلكة!

وقد تحققت بالفعل نظرية مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة حين قال في وقت مبكر في 1916م:

"إن هدف الشريف هو تأسيس خلافة لنفسه. نشاطه يبدو مفيدًا لنا؛ لأنه يتماشى مع أهدافنا الآنية؛ وهي تفتيت الكتلة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها. إن العرب هم أقل استقرارًا من الأتراك؛ وإذا عولج أمرهم بصورة صحيحة فإنهم يبقون في حالة من الفسيفساء السياسية؛ مجموعة دويلات صغيرة يغار بعضها من بعض؛ غير قادرة على التماسك. وإذا تمكنا فقط من أن ندبّر جعل هذا التغيير السياسي عنيفًا؛ فسنكون قد ألغينا خطر الإسلام بجعله منقسمًا على نفسه".

فهل نجعل هذه الخاتمة كما أرادها البريطانيون، أم لا زال بأيدينا أن نغير واقعًا مظلمًا فرض على المسلمين؛ بسبب خطيئة بعض حكامهم؟.

لا شك أن للمستقبل البقية!

موسوعة الذخائر العظام فيما أثر عن عبد الله عزام

إن الحروف لتقف خجلة حين تُستجمع لتنسج ما يوفي شيخ المجاهدين وإمامهم حقه من الوصف والتقدير، ذلك أن همة كهمة الشيخ عبد الله عزام، تعتبر مضربا للأمثال وقدوة للأجيال، سطرت في أقل من خمسين سنة، أسطورة عطاء متميز، لا زالت منافعه تغدو بين جموع المسلمين فتأبى نسيانه.

ويكفي إلقاء نظرة على موسوعة الذخائر العظام فيما ورد عن الإمام الهمام الشيخ المجاهد عبد الله عزام تقبله الله، لندرك حجم العطاء والبذل الذي شغل وقت الشيخ، يظهر ذلك في الأجزاء الأربع من الموسوعة الضخمة، كل جزء منها يحوي أكثر من 1000 صفحة وهي الصفحات التي جمعت كتابات الشيخ من مقالات وافتتاحيات لمجلة الجهاد ونشرة لهيب المعركة إضافة لتفريغ لمحاضراته الصوتية والمرئية وكذا جميع مؤلفاته من الكتيبات ذات الحجم الصغير فضلا عن بعض الكتب والمجلدات التي خطها الشيخ بقلمه.

وقد عمل على إخراج هذا العمل الضخم وأشرف عليه، الأستاذ محمود سعيد عزام، مدير المكتب الإعلامي للشهيد عزام في بيشاور – باكستان سابقا.

ثم ما يدفعنا حقيقة للانبهار هو أن ما تم جمعه في الموسوعة من تأليفات الشيخ عبد الله عزام هي مؤلفاته خلال عشر سنين فقط، وعجز في الوصول لكتابات ومحاضرات الشيخ التي ألقاها في أوروبا وأمريكا والخليج وغيره لصعوبة ذلك، أي أن

هذه الموسوعة لم تستوف جميع أعمال الشيخ الذي برغم انشغاله بالجهاد والدعوة إلا أنه أتعب من بعده في مجال التأليف.

ولا شك أن هذه الكتابات هي خلاصة دراسة وبحث ومعايشة ومشاهدة قدم فيها الشيخ الشهيد خبراته الثمينة التي كان للجهاد فيها نصيب الأسد والتي ستبقى منارا للعاملين إلى ما شاء الله.

ويكفي النظر في معسكرات التدريب وفي ساحات الإعداد والرباط لنعلم مدى ارتباط هذا الميدان الشديد الخطورة والتعقيد، بفكر الشيخ عبد الله عزام الذي انتزع لقب إمامة بلا أدنى جدال.

فلا زالت كتبه تدرس وتربيته تلقن وخلاصاته تحفظ وآثاره تتوارث، كل هذا دليل نباغة وصدق واجتهاد وعلم كان عنوانه الشيخ.

ومن يتجول بين صفحات موسوعة الذخائر سيتمتع بثرائها المميز، ويحلق مع "آيات الرحمن في جهاد الأفغان"، جمع فيها الشيخ الكرامات والرؤى التي ازدان بها الجهاد الأفغاني، وسيتعرف على "إلحق بالقافلة" التي كتبها بروح المحرض المجاهد، وسينتفع بـ "عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر" التي نثر فيها الإلهام الراشد، ثم "المنارة المفقودة "التي بسط فيها تاريخا غابرا استخلص منه العبر الحسان منذ سقوط الخلافة الإسلامية وبروز نجم مصطفى كمال أتاتورك، وسيحلق في "السيرة عبرة" التي عرج بنا في فقراتها بسيرة خير الأنام مُحَمَّد ﷺ، وتألق الشيخ في كل من "التربية الجهادية" و"البناء" و"بشائر النصر" و"إعلان الجهاد "و"كلمات من خط النار "، و"خط التحول التاريخي" و"الأسئلة والأجوبة الجهادية "و"الإسلام ومستقبل البشرية " و "في ظلال سورة التوبة "و "تجارب جهادية"، وهذا غيض من فيض، لا يفوت مثابر النيل من خيره.

ولا ريب، فموسوعة الذخائر العظام ليست إلا خلاصة تلك المسيرة التي استمرت منهمرة بالبركات، حتى أراد الله ليد غدر آثمة أن تنتزع الشيخ المجاهد من بيننا، في24 نوفمبر 1989م، فرحل البطل مجندلا بدمائه، ولكن تركته بقيت بيننا تثري رفوف مكتباتنا وتنير عقول أجيال لاحقة من بعده، وإن ما سطره بروحه ومهره بدمه في عشر سنين، لم يكن إلا دليلا على عبقرية مسلمة وطأت ثريا النجاح.

العلم والجهاد معا

وفي حين كان يستدل الشيخ عبد الله عزام بأقوال الشيخ عبد الله ابن المبارك، إلا أن الشيخين على اختلاف أزمانهما قد اشتركا في فضيلتي العلم والجهاد معا، ولهذا سنجد للشيخ عبد الله عزام مؤلفات في شتى فنون العلم في أبواب العقيدة وفي الفقه وفي التاريخ، توّجها بكتابات لها السبق في التأليف الجهادي الذي تعمق فيه بفقه وتربية وتجربة وتوجيه وتأريخ.

المولد والنشأة

ولد إمامنا في فلسطين في قرية "سيلة الحارثية" بالقرب من مدينة جنين سنة 1941م وهناك نشأ وترعرع وشبّ في بيت دافئ بحنان العائلة وهناك أيضا تلقى علومه الابتدائية والاعدادية لينتقل إلى طولكرم حيث أكمل دراسته في معهد "خضوري" الزراعي.

لكن عناية الشيخ بتحصيله العلمي كان يوازيها تربية إيمانية مواظبة فقد كان ملازما لتلاوة القرآن ولمسجد القرية وعرفت دروسه منذ ذلك الوقت فكان فارس الدعوة الإسلامية الذي لا يعلم ما ينتظره بعد من جدّ واستعمال فكانت مشيئة الله في الإعداد.

تفوق الشيخ في دراسته وأهله هذا التفوق لمتابعة دراسته الجامعية في جامعة دمشق (كلية الشريعة) حيث حصل على شهادة الليسانس بتقدير "جيد جدا" وخلال إقامته في سوريا تمكن من لقاء بعض مشايخها وعلماءها أمثال الدكتور مُحَمَّد أديب الصالح و أبي الفتح البيانوني، والإمام المجاهد مروان حديد، وحين قفل عائدا إلى وطنه شاء الله أن يتم نصف دينه ويتزوج سنة 1965م ليرزقه الله بعدها بخمسة ذكور وثلاث إناث: استشهد معه اثنين منهم.

الجهاد في فلسطين

لقد نثر الشيخ المجاهد من عبق مساهمته على صفحات جهاد فلسطين، بعد سقوط الضفة الغربية وقطاع غزة بيد الصهاينة عام 1967م، ولكنه جهاد مقهور بقلة النصير وبقوة العدو، فخرج بعد مواجهات واستفزازت، باتجاه الأردن وهناك تعاقد مع التربية والتعليم في السعودية لمدة سنة، لكنه رجع بعدها الى الأردن ولمع نجم نشاطه الفدائي ليلفت الانتباه. لقد بدأ يطبق نظريته في الكفاح، بعد أن أيقن أن لا سبيل للفلاح إلا الجهاد والإعداد، فكان مسعر حرب بامتياز ومحرضا في سبيل الله قد حاز الاختصاص ومقتحما للصفوف قد أدرك سبيل الخلاص، تشهد له معركة المشروع أو الحزام الأخضر في منطقة الغور الشمالي وهي المعركة التي جرح فيها الشيخ أبو مصعب السوري، كما تشهد له معركة 5 حزيران 1970م، لكن أيلول 1970م قطع الطريق على الشيخ الإمام للجهاد على أرض فلسطين بعد أن أغلقت الحدود.

مسابقة وتحصيل

إنه الشيخ الذي جمع بين العلم والجهاد، فتراه مرابطا في قواعد الشمال وطالبا في جامعة الأزهر، نال شهادة الماجستير في أصول الفقه سنة 1968م ما أهّله لأن

يستلم منصب محاضر في كلية الشريعة في عمان 1970م لمدة سنة لكنه انتقل بعدها إلى القاهرة أين حصل على شهادة الدكتوراه في أصول الفقه بمرتبة الشرف الأولى في عام 1973م.

وبسبب شخصية الرائعة وروحه المعطاءة أحبه من حوله كثيرا خلال السبع سنوات التي عمل فيها مدرسا في الجامعة الأردنية في كلية الشريعة منذ سنة 1973م ولأجل هذه الشعبية ولأجل تحريضه لجموع الشباب وقدرته على توجيههم إلى الجهاد وتحقيق دعوته القبول، جاء قرار الحاكم العسكري الأردني بفصله من الجامعة الأردنية.

فصل انتهى برحيل الشيخ إلى السعودية حيث عمل مع جامعة الملك عبد العزيز في جدة عام 1981م، ولكن ما لبث أن حلّق إلى الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام آباد في باكستان حين تنسم أريج الجهاد الأفغاني.

وهناك شق الشيخ طريقه الذي كان يحلم به ويعد له، وانطلق عمله الجهادي في بيشاور والذي افتتحه بتأسيس مكتب الخدمات لتوجيه الأخوة العرب لخدمة الجهاد 1984م وهو المكتب الذي ذاع صيته وامتدت بركات اجتهاده في أرض أفغانستان.

هناك في فضاء أفغانستان لا زال صدى كلماته النارية يتردد، "أيها المسلمون: حياتكم الجهاد، وعزكم الجهاد، ووجودكم مرتبط ارتباطا وثيقا بالجهاد، أيها الدعاة: لا قيمة لكم تحت الشمس إلا إذا امتشقتم أسلحتكم وأبدتم خضراء الطواغيت والكفار والظالمين، أما الذين يظنون أن دين الله يمكن أن ينتصر بدون جهاد وقتال ودماء وأشلاء هؤلاء واهمون لا يدركون طبيعة هذا الدين".

إمام التربية الجهادية

هو الإمام الذي وضع قواعد متينة في التربية الجهادية، وقد كانت له خطبا رنانة ونصائح براقة لأبناء الحركة الإسلامية وقادتها، لا زال منها يتردد مثل: "الجهاد ضروري للحركة الإسلامية، إذا استمرت في أخذ العلم دون التعامل معه فإنه يؤدي إلى قسوة القلوب وقلة التقوى وضعف الإيمان وتفقد الحركة مصداقيتها فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله".

وهو الذي قال: "أدركت أن التربية ركن ركين وجزء أساسي في الإعداد لأي عمل جهادي، وقبل امتشاق الحسام وانتضال السلاح، ولا يمكن للنفس المقصرة أن تتسلق إلى قمة سنام الإسلام وهي عاجزة عن صعود أولى درجات السلم، ولئن قفزت فوصلت فإنها لا تستطيع الصمود، فإن استطاعت بطاقة اندفاعها وحماسها على الصعود فإنها لا تطيق طويلا الصمود، وعندها تسقط من فوق القمة.

وبالمعايشة مع الإنصاف يمكن أن تذوب كثير من الخلافات بين الجماعات وتنصهر الطاقات من شتى المآرب والدعوات في بوتقة العمل الواحد، وعلى حرارة الأحداث وسخونة الوقائع والمشكلات.

وبالمعايشة فوق أرض المعركة تبددت كثير من الأوهام، وزال كثير من الغبش واللبس الذي نشأ في الظلام، وأدرك الإنسان أن العمل الجدي الواقعي غير الأحلام العذبة التي تداعب الخيال، وإن الآمال لا بد لها من عظام الرجال لينقلوها إلى وقائع وأفعال.

وبالتجربة الحية الواقعية أدركت أن الجماعات الإسلامية يكمل بعضها بعضا، ولا غنى عن التعاون على البر والتقوى، ولا يمكن لأي حركة أن تقيم مجتمعا إسلاميا

بدون الاستفادة من طاقات المسلمين، وأن تكسب كل ذرة خير تستطيعها في صالح العمل الإسلامي ابتغاء مرضات الله!".

خصال لابد منها للإمامة

عرف الشيخ بحماسته وغيرته الشديدة للجهاد والإسلام وبشجاعته التي قلّ لها نظير، فكان مصداقا لمقولة، إذا كنت تريد أن تكون إمامي فكن أمامي! وهو ما تشهد له أرض جاجي (المأسدة) وقندهار ، أين اخترق الصفوف في منطقة سهلية حتى وصل إلى بعد 1500متر من مواقع الشيوعيين في أجواء تدعو للتريث والكفّ، كما عرف بالزهد وترفعه عن الترف، فهو الذي ترك الدنيا بزخرفها، وترك الجامعات ومكاتب الدكاترة ومشاهير الأعلام، لغبار المعارك والأتربة، وخرج من الدنيا دون أن يأخذ منها شيئا ولا عجب أن تعكس وصاياه تلك العبقرية الفذّة في تناول أعمدة الجهاد التي من بينها الزهد والقناعة والتواضع.

مفهوم جهاد أمة

لقد كان الصابر المصابر الذي كتب في الصبر الدرر النافعة الماتعة، ومن يتفرس في خط سير الشيخ الدعوي والجهادي سيبصر رغبة الشيخ الواضحة في تحويل الأمة برمتها للجهاد، وجمعها كأمة إسلامية واحدة تحت علم الجهاد، وذاك هو مفهوم جهاد الأمة، وقد كان يردد الداعية له ببصيرة ثاقبة قائلا: "إن موت جميع أولادي أحبّ إليّ من أني أتخلف قادة الجهاد".

إننا اليوم ننصح كل من أراد أن يتعرف على عبقرية الشيخ عبد الله عزام أن يبحر في ثنايا موسوعة الذخائر العظام للشيخ الإمام ثم حريّ بكل مسلم حامل همّ أمته أن

ينهل من ثمراتها ويغوص في أعماقها ويستخرج الفوائد النيرة والخلاصات المبهرة كيف لا، وقد أثبتت الأيام مع كل نازلة أننا لا زلنا بأمس الحاجة إليها وبكل وصية له أو ميراث، فهو الشيخ الإمام الذي كما نحسبه قد أدرك طبيعة هذا الدين وأدرك سبل نصرته والاعتزاز به.

فاللهم تقبل عبدك المجتهد الشيخ عبد الله عزام واجزه عنا خير الجزاء وبارك في زرعه وحصاده.

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

خاتمة

لطالما وجدت القراءة وسيلة أولى لتحصيل العلم، ولاشك أن هذا العلم سيكون ذا نفع وفائدةٍ حين نستلهمه من كتبٍ خطتها أناملٌ نهل أصحابها من معين الإسلام العظيم، وخاضوا غمار ميادين الحياة والتأمل والبحث. وكلما كان نتاج الكاتب زاخرا متينا ومثيرا للاهتمام كلّما صار الدّيْن علينا ثقيلا لننشر خيره ونوصل رسالته، فنحن أمة واحدة نسند بعضنا البعض، وإنه لمن الأنانية بمكان أن نقرأ وندّخر ما استجمعناه من فوائد وأفكار في أذهاننا فقط حتى تشيخ وتقبر معنا، في حين أن منتهى اللذة والمتعة تكون في نشر ثمار العلم والدراسة لكل مجتهدٍ باذلٍ منّا، وهذه زكاة ما تعلمناه وحلقة تواصٍ بالحق، وهذه درجة إحسان مثلى، نسأل الله ذلك.

هذا ما دفعني تحديدا لجمع خلاصات ما قرأت في سفرٍ واحدٍ، أختصر به المسافات والأوقات لأبناء الأمة الواحدة، لعلها تكون نافعة ماتعة لمن قرأها بإقبال وشغف. ولعلها تدخل في خير ميراث يمكننا أن نتركه بعدنا، من علمٍ نافعٍ ونصيحة فذّة.

ثم لا تغني هذه الخلاصات عن الرجوع للكتب الأصل، ولكنها تعطي – على الأقل– فكرة عما تحتويه من عبقريات ومعلومات وتحرض على مزيد اطلاع وتعمّق.

فمن وجد فيها خيرا نسأل الله أن ينتفع به، ومن استثقلها وعتب فإنما هي جهد المقل.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

ليلى حمدان